# الفصل الخامس

## أوج الكلاسيكية فى الأدب الفرنسى

### ١٦٤٣ — ١٧١٥

## ١ ـ جو الكلاسيكية

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكى الفرنسى مواكبا تماما لعصر لويس الرابع عشر ، بل جاء إبان وزارة مازاران وفى الربيع المشرق لهذا العصر ( ١٦٦١ — ٦٧ ) ، قبل أن ينحى مارس ( إله الحرب ) ربات الفنون إلى المؤخرة . أما أول حافز للتفجر الأدبى فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر ، وجاء الثانى من الانتصارات الحربية التى حققها الفرنسيون فى روكروا ( ١٦٤٣ ) ولنز ( ١٦٤٨ ) ، وانساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية فى معاهدتى وستفاليا ( ١٦٤٨ ) والبرانس ( ١٦٥٩ ) ، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبلاء والمثقفات من النساء فى الصالونات ، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التى حظى بها الأدب من الملك والحاشية . وكثير من روائع ذلك العهد — كرسائل بسكال ( ١٦٥٦ ) وخواطره ، وطرطوف موليير ( ١٦٦٤ ) ومسرحية وليمة التمثال الحجرى ( ١٦٦٥ ) ومبغض البشر ( ١٦٦٦ ) ، وأمثال لاروشفوكو ( ١٦٦٥ ) وهجائيات بوالو ( ١٦٦٧ ) وأندروماك راسين ( ١٦٦٧ ) — هذه كلها كتبت قبل ١٦٦٧ بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران .

ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله . فما مضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم ( ١٦٦٢ — ٦٣ ) — أى قبل هذه الآثار

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها — حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يكلفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أى بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة . ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية(١) . وأدهش الأدبيين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس ، والفزيائى الهولندى كرستيان هويجنس ، والرياضى الفلورنسى فيفيانى ، وكثيراً غيرهم من الأجانب ، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسى أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم. وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات فى العام . فعاش بوالو عميد الشعر غير الرسمى ، على معاشاته كأنه إقطاعى كبير ، وترك لورثته ٢٨٦٫٠٠٠ فرنك نقداً ، وتلقى راسين ١٤٥٫٠٠٠ فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكى (٢) . ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة فى كسب أرباب الأقلام خارج فرنسا ، أما الهبات فى الداخل فهدفها إخضاع الفكر ، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين. وتحقق هذا الهدف ، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة ، وأذعن الذهن الفرنسى للإشراف الملكى على تعبيره المطبوع ، باستثناء مقاومة متفرقة ضئيلة . يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقلام المأجورة ستتغنى بمديحه نثراً وشعراً وتخلف للتاريخ صورة مشرقة له . وقد بذلوا فى هذا قصاراهم .

ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء ، بل إنه حماهم واحترمهم ، ورفع مقامهم الاجتماعى ، ورحب بهم فى القصر . قال مرة لبوالو « تذكر أننى سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتى(٣) » . وربما كان ذوقه الأدبى مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية ، خصائص النظام ، والوقار ، وجمال الشكل ؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن فى رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا . وكان من بعض الوجوه

متقدما على شعبه وبلاطه فى أحكامه الأدبية . وقد رأيناه يحمى موليير من غدر النبلاء ورجال الدين ، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين .

وعملا باقتراح آخر من كولبير ، وترسما لخطى ريشليو مرة أخرى ، أعلن لويس أنه الراعى الشخصى للأكاديمية الفرنسية ؛ ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى ، ووفر لها الأموال الكافية ، وهيأ لها مكاناً فى اللوفر . وأصبح كولبير نفسه عضوا فيها . ولما أمر عضو ، كان إقطاعياً كبيراً فى الوقت ذاته ، بأن يوضع له مقعـــد وثير فى الأكاديمية ، أرسل كولبير فى طلب تسعة وثلاثين مقعداً على شاكلته حفاظاً على المساواة فى الكرامة قبل الفوارق الطبقية ، وهكذا أصبحت « المقاعد الأربعون » مرادفاً للأكاديمية الفرنسية ، وفى ١٦٦٣ نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجل أحداث العهد .

واستوثق كولبير من أن « الخالدين الأربعين » يكسبون رواتبهم بالانتظام فى الحضور وبالجهد فى تصنيف القاموس . وكان مشروع هـذا القاموس الذى بدأ فى ١٦٣٨ يتقدم فى بطء شديد ، حتى استطاع بوارو بير أن يعبر أبجدياً عن أمنيته فى طول العمر ، « لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F ، فليت قدرى يمهلنى حتى حرف G (٤) » .

كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل ، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال تاريخ استعمالاتها وهجاءاتها ، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية ، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء المشروع ، ونشر القاموس لأول مرة ( ١٦٩٤ ) . ولقد أسرف فى فحص لغة الشعب ، والمهن ، والفنون ، وشذب رابليه ، وآميو ، ومونتينى ، ورفض مئات التعبيرات التى تعين على الحديث الحى . فذات المنطق ، والدقة ، والوضوح الذى جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته ، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولبير على الاقتصاد ولبرون على

الفنون ، وذات الوقار والتأنق اللذان سيطرا على بلاط الملك ، وذات التشبث الكلاسيكى بالقواعد الذى شكل أسلوب بوسويه ، وفينيلون ، ولاروشفوكو ، وراسين ، وبوالو — كل أولئك أملى قاموس الأكاديمية .

ولقد نقح وأعيد نشره دورياً ، وكافح للاحتفاظ بالنظام فى جسم نام حى ، وهاجمت قلعته الكلاسيكية المرة بعد المرة ، وكثيراً ما اقتحمتها أخطاء الشعب ، ومصطلحات العلوم ، ورطانة الحرفيين ، وعامية الشوارع ؛ والقاموس ، شأنه شأن التاريخ والحكومة ، مزاج من القوى بين ثقل الكثرة وقوة القلة . وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية ، وكسبت الكثير من حيث النقاء ، والدقة ، والأناقة ، والمكانة . أنها لم تنجب شيكسبيراً هائجاً مائجاً ، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوربا احتراما ، وغدت أداة الدبلوماسية ، ولسان الارستقراطيات . وظلت أوربا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية .

## ٣ - تذييل لكورنيي : ١٦٤٣ - ٨٤

بلغت اللغة أوجها فى السهولة المرنة التى اتسم بها حوار موليير ، وفى بلاغة كورنيي الطنانة ، وفى تأنق راسين الشجى .

أما كورنيي فكان يبدو فى ربيع أدبه — وهو فى السابعة والثلاثين — حين اعتلى لويس العرش : وقد بدأ العهد بملهاة « الكذاب » التى رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت « السيد » نبرة المأساة . ثم راح يدفع إلى المسرح بالمآسى كل عام تقريبا بعد ذلك ، رودوجون ( ١٦٤٤ ) ، وتيودور ( ١٦٤٥ ) ، وهيراقليوس ( ١٦٤٦ ) ودن سانشو الأراجونى ( ١٦٤٩ ) وأندروميد ( ١٦٥٠ ) ونيكوميد ( ١٦٥١ ) وبرتاريت ( ١٦٥٢ ) . ولقى بعض هذه التمثيليات استقبالا حسنا ، ولكن حين تعاقبت كل منها سريعا خلف سابقتها ، وضح أن كورنيي يتعجل الإنتاج ، وأن عصارة

عبقريته آخذة فى النضوب . وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف . قال موليير « إن لصديقى كورنيي رفيقاً يلهمه أروع شعر فى الدنيا . ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شئونه ، وعندها يتعثر شر تعثر(٥) . » وقد لقيت « بارتاريت » من سوء الاستقبال ما حمل كورنيي على أن يعتزل المسرح ست سنوات ( ١٦٥٣ — ٥٩ ) ، وتناول نقاده فى سلسلة من « الفحوص » ، وفى ثلاثة أحاديث عن الشعر المسرحي . وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية ، وأصبحت ينبوعا للنقد الأدبى الحديث ، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة فى نثر رائع .

وفى ١٦٥٩ ردت كورنيي إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه . وظفرت مسرحيته « أوديب » ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها ، ولكن المسرحيات التى تلتها — سرتوريوس(١٦٦٢) ، وسوفونيسب ( ١٦٦٣ ) ، وأوتون ( ١٦٦٤ ) ، وآجيسيلاس ( ١٦٦٦ ) وأتيلا ( ١٦٦٧ ) — هذه كلها كانت قاصرة قصورا لم يستطع فونتنيل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورنيي ؛ وقال بوالو فى بيت ساخر :

« بعد أجيسيلاس ، وا أسفاه ! ولكن بعد أتيلا ، قف ! » وزادت مدام هنريتا الطين بلة ، مع أنها كانت عادة آية العطف والرقة ، حين دعت كلا من كورنيي وراسين ، بعلم من كل ، إلى أن يكتب تمثيلية فى ذات الموضوع — وهو بيرنيس ، الأميرة اليهودية التى وقع فى حبها تيطس الإمبراطور القادم . ومثلت بيرنيس التى ألفها راسين فى الأوتيل دبورجون فى ٢١ نوفمبر ١٦٧٠ بعد خمسة أشهر تقريبا من موت هنريتا ، ولقيت نجاحا كاملا . أما مسرحية كورنيي « تيطس وبرينيس » فقد مثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع ، ولم تلق غير استقبال فاتر : وحطم فشلها روح كورنيي . وجرب حظه ثانية بمسرحيتى « بولشيري » ( ١٦٧٢ ) وسورينا ( ١٦٧٤ ) ،

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضا . وأنفق كورنيي بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتئبة .

وكان متلافا ، مات فقيرا برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات ، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات ، فلجأ كورنيي إلى كولبير ، فأمر برده إليه ، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير . فلما نمى الأمر إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر ، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورنيي . ولكن الملك بادر بإرسال مائتي جنيه للشاعر العجوز ، الذي مات بعدها بقليل ( ١٦٨٤ ) بالغا الثامنة والسبعين وأبنه في الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذي كان قد خلفه ، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما ، والتأبين مازال مذكورا لما حوى من سماحة وبلاغة .

## ٣ — راسين : ١٦٣٩ - ٩٩

ولد مثل موليير في أسرة متوسطة . وكان أبوه مراقبا لاحتكار الدولة للملح في لافيرتي — ميلون ، على نحو خمسين ميلا شمال شرقي باريس ، وكانت أمه ابنة محام في فيليه — كوتريه . وقد ماتت عام ١٦٤١ وجان لم يبلغ الثانية بعد ؛ وبعد سنة مات أبوه ، فكفل الصبي جده لأبيه . وكان في الأسرة نزوع قوي إلى الجانسنية ، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البور — رويال ، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى « المدرسة الصغيرة » التي يديرها « المتوحدون » وقد تلقى عنهم تعليما مركزا في الدين واليونانية — وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته . واستهوته تمثيليات سوفوكليس ويوريبيديس فترجم بعضها بنفسه . ثم تعلم شيئا من الفلسفة ومزيدا من الثقافة الكلاسيكية في كلية آركور بباريس ، واكتشف المفاتن الخفية للأنوثة الشابة ، الجديد منها

والمستعمل . وعاش عامين على شاطىء الجزائر أوجوستان مع ابن عمه نيكولا فيتار ، الذى كان يتردد بين البور — رويال والمسرح . واستمع راسين إلى عدة تمثيليات ، وكتب تمثيلية ، وعرضها على موليير . ولم تكن من الجودة بحيث تستحق الأخراج ، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبى ، وشجعه على أن يعيد الكرة . واستقر رأى راسين على اتخاذ الأدب حرفة له .

وهال هذا الجنون أقرباءه ، وراعهم ما نمى إليهم من أنباء غرامياته ، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبى فرنسا ( ١٦٥٩ ) مساعداً لعم له كان كاهنا لكتدرائية ، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قسا . أما الشاعر الشاب ، الذى مازال باطنه يضطرم بنار باريس ، فقد ظل طاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء ، وقرأ القديس توما الأكوينى — وقليلا من أريوستو ويوريبيديس بجانبه . وكتب الآن إلى لافونتين يقول :

« كل النساء رائعات ... لحم غض طرى ، ولكن بما أن أول شىء قيل لى هو أن آخذ حذرى ، فلست أريد أن أقول المزيد عنهن . أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهانا لبيت كاهن ذى وقف أعيش فيه أن أخوض فى حديث طويل عن هذا الموضوع ، « بيتى بيت الصلاة يدعى » ... لقد قيل لى « كن أعمى » فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية ، فإنى أستطيع على الأقل أن أكون أبكم ... لأن على المرء أن يكون راهباً مع الرهبان ، كما كنت ذئباً معك ومع غيرك من ذئاب قطيعك[٦] » .

ولقى الكاهن شدائد وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعوده أملا بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسية . فبدل ثوبه ، وطوى كتاب « خلاصة اللاهوت » وعاد إلى باريس ( ١٦٦٣ ) .

فلما بلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك . وافترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيليته الثانية « طيبة » ( التيبايد ) . وأخرجها

مولييير فى ٢٠ يونيو ١٦٦٤ ، ولـكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض . على أنها أحدثت من الضجة ما كفى لسماعها فى البور — رويال — دوشان . وأرسلت إليه عمته من هناك رسالة تستحق أن نوردها باعتبارها جزءاً من دراما تعدل فى بلاغتها وتأثيرها فى النفس أى شىء كتبه راسين :

« حين نمى إلى أنك تنوى الحضـور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لى برؤيتك ... ولـكننى سمعت مؤخراً خبراً أثار فى أشجانا عميقة . وانى أكتب إليك فى مرارة قلبى ، وأذرف الدمع الذى أرجوان أسكبه غزيراً أمام الله لأنال منه خلاصه الذى أتوق إليه أشد مما أتوق لأى شىء آخر فى العالم . فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أى وقت مضى معشراً اسمهم بحق رجس عند كل من له أى نصيب من تقوى ، ، لأنهم محرومون من دخول الـكنيسة ، أو تناول الأسرار المقدسة .. فانظر الآن يا ابن أخى إلى أى حال صرت ، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنـــان ، وبأنه لم يـكن لى من سؤل إلا أن تتبع الله فى وظيفة شريفة . لذلك أتوسل إليك يا ابن أخى العزيز أن ترحم نفسك ، وتفحص قلبك ، وتتأمل بجد أى هوة ترديت فيها . أننى لأرجو ألا يـكون صحيحا ما أنبئت به ، ولـكن إذا كان سوء طالعك قد بلغ مبلغا يحملك على مواصلة تجارة تشينك أمام الله والناس ، فعليك ألا تفـكر فى المجىء لرؤيتنا ، لأنك تفهم جيداً أننى لن أستطيـع فى هذه الحالة أن أكلمك لعلمى بأنك فى حالة مؤسفة جداً ، مناقضة كل المناقضة للمسيحية . ولن أكف فى الوقت نفسه عن التضرع لله ليرحمك ، فيرحمنى برحمته إياك ، لأن خلاصك عزيز على جداً(٧) » .

فهاهنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذى تسجله صفحاتنا عادة — عالم من الإيمان العميق بالعقيدة المسيحية ، والولاء المحب لدستورها الأخلاقى . ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تـكتب بمثل هذا الأخلاص فى العاطفة ، ولم تخل من العذر لرأيها فى المسرحية الفرنسية كما

كانت فى شبابها . ولم تبلغ عبارة نيكول العلنية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو ، وكان قد علم راسين فى البور — رويال :

« كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب .. تمثيليات للمسرح ... وهذه المهنة فى نظر ذوى العقول الراجحة ليست فى ذاتها مهنة شريفة جداً ، ولكن إذا نظر إليها فى ضوء الدين المسيحى وتعليم المسيح كانت فى الحق مهنة رهيبة . فالروائيون تجار سموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم(٨) ».

واجاب كل من كورنيي وموليير وراسين على هذا الاتهام على حدة ، وكان فى جواب راسين من العنف الغاضب ما جعله يندم عليه اشد الندم فى سنوات لاحقة .

وتلا خصامه مع البور — رويال خصام مع موليير بعد قليل . ففى ديسمبر ١٦٦٥ قدمت فرقة موليير تمثيليه راسين الثالثة « الإسكندر » وكان موليير كريما كعادته ، فهو عليم بأن راسين لم يعجب به ممثلا تراجيديا ، وان المؤلف الشاب بهيم بأجمل ممثلاته وإن لم تكن اكفأهن ، لذلك اخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية ، واعطى الدور النسائى الأول لتريز دبارك ، ولم يضن بمال على الأخراج . وقد لقيت استقبالا حسنا ، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل . فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية ، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير واعطائها لهذه الفرقة المنافسة . وأقنع الآنسة دبارك التى أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتنضم إلى الفرقة الأقدم . وعرضت المسرحية فى مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة فى أكثر قليلا من شهرين . ولم تكن من روائع راسين ، ولكنها وطدت مكانته خلفا لكورنيي ، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة . فحين قال له راسين مفاخراً « انى أنظم شعرى فى يسر مدهش » أجابه بوالو « أريد أن أعلمك كيف تنظمه فى عسر(٩) » . ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكى .

ولا علم لنا بمدى العمر الذى نظم به راسين « أندروماك » ؛ على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسلوبه الشعرى . وهو يذكر فى إهدائه المسرحية إلى مدام هنريتا أنه قرأها عليها ، وأنها بكت . ومع ذلك فهى مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة ، وفيها كل السكارنة المحتومة التى نتوقعها فى إسخيلوس أو سوفوكليس . والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية : فاوريست يحب هرميون ، التى تحب بيروس ، الذى يحب أندروماك ، التى تحب هكتور ، الذى مات . وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى فى انتصار اليونان على طرواده : منح أبيروس مملكة له ، وأندروماك ( أرملة هكتور ) أسيرة له ، وهرميون ( ابنة منيلاوس وهيلانه ) زوجة له . أما أندروماك فلا تزال شابة وجميلة ، وإن لم تكف عن البكاء ، وهى لا تحيا إلا لتذكر زوجها النبيل ، وتخاف على طفلهما أستيانا كس ، الذى ينقذه راسين — باحراف مسرحى عن القاعدة — من الموت الذى كان نصيبه فى يوريبيديس ليستعمله هنا أداة فى يد القدر . ويفد أوريست — بن كليتمنسترا وقاتلها — على إبيروس مبعوثا من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم استيانا كس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطرواده فى المستقبل . ويرفض بيروس الاقتراح فى فقرة تمتنع موسيقاها على الترجمة . يقول ما معناه :

« إنهم يخشون أن تولد طرواده بهكتور من جديد ، وأن ابنه قد ينتزع منى الحياة التى حفظتها عليه . سيدى ، إن الأفراط فى التدبر يجر أفراطا فى الحذر . إننى لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير . وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة ( طرواده ) فيما مضى ، جبارة فى حصونها ، شديدة الخصوبة فى أبطالها ، سيدة على آسيا ، ثم أتأمل فى النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها — فلا أرى غير أبراج غطاها الرماد ، ونهر صبغت مياهه الدماء ، وحقول هجرت ، وطفل مقيد بالأغلال ، واست أظن أن طرواده تقوى على الثأر وهى على هذه الحال . آه ، لو كان ابن

هـكتور قدر عليه الموت ، فلم أبقينا عليه طاما كاملا ؟ ألم نـكن قادرين على تقديمه قربانا على صدر پريام ؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى فى طروادة ؛ يومها كان كل شىء مباحا ، وعبثا كانت تحتج الشيخوخة والطفولة بضعفهما فى الدفاع عن نفسيهما ، فالنصر والقدرة ، وهما أشد منا قسوة ، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز فى ضرباتنا . إن غضبى على المغلوبين جاوز حد الصرامة ، ولـكن أيجب أن تبقى قسوتى بعد غضبى ؟ أينبغى أن أغتسل متلبثاً فى دم طفل برغم ما يتملـكنى من شفقة عليه ؟ لا ياسيدى ، فليبحث اليونان عن فريسة أخـــرى ، وليلاحقوا ما بقى من طروادة فى غير هذا المـكان . لقد بلغت نهاية الشوط فى عدائى . ان ابيروس ستنقذ ما أبقت عليه طروادة »(١٠) .

هنا مأخذ واحد ، ذلك أن بيروس ، وربما راسين ، لايدركان مبلغ ماتدين به شفقة الفاتح لغرامه بأم الطفل — إلى حد عرضه الزواج منها ( مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له ) ، واتخاذه أستيانا كس ولدا ووريثا له . ولـكنها ترفضه ، فهى لاتستطيع أن تنسى هـكتور ، الذى قتله أبو بيروس . وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان ، فيروعها تهديده ، وترضى بالزواج منه ، ولـكن هرميون — وهى فى تصور راسين لها تضارع الليدى مكبث قوة — ، تشتعل غضبا لأنها نبذت ، فهى تعتزم قتل بيروس رغم أنها لاتزال تحبه ، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء ، شريطة أن يقتل بيروس . فيوافق كارها . وفى كل خطوة وكل شخص من شخوص هذه المسرحية صراع فى الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروقة فى الأدب . ويقتحم الجند اليونان الهيكل ويقتلون بيروس عند المذبح الذى يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك . وتحتقر هرميون أوريست ، وتجرى إلى المذبح ، وتغمد مدية فى جسد بيروس الميت ، ثم تطعن نفسها وتموت . هذه أعظم مسرحيات راسين ، وهى خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شيكسبير

أو يوريبيديس : حبكة متينة البناء ، وشخوص كشف عنها فى عمق ، ومشاعر مدروسة فى كل تعقيدها وحدتها(*) ، وشعر فيه من الروعة والتناغم مالم تسمعه فرنسا منذ رونسار .

واعترف الناس بأندروماك للتو رائعة من روائع الأدب ، فوطدت مقام راسين خليفة لكورنيي وربما متفوقا عليه . ودخل الآن أسعد عقد فى عمره ، متنقلا من نصر إلى نصر ، بل متحديا موليير بملهاة من قلمه . والملهاة ، واسمها « المتخاصمون » ، وهى تقليد ساخر ( برلسك ) للمحامين الجشعين ، وشهود الزور ، والقضاة الفاسدين — هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون . ذلك أنه التمس دهنا على دخل دير وحصل عليه ؛ ولكن راهبا نازعه دعواه ، وتلا ذلك دعـــوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعا فتخلى عنها وثأر لنفسه بكتابة المسرحية . ولم تسر النظارة فى أول عرض لها ، ولكن حين مثلت فى البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكا جعل الجمهور يغير رأيه ، وأدت هذه الملهاة المتوسطة الجودة دورها فى ملء جيب راسين .

على أن نغمة صغيرة قطعت عليه هناءه . ذلك أن خليلته دبارك ماتت فى ظروف غامضة — سنفصلها فى موضع لاحق — فى ١١ ديسمبر سنة ١٦٦٨ . وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى مارى شانمسليه . وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر ، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر . واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر ، وبعد ذلك انتزعها الكونت دكليرمون — تونير من جذورها ( déracinée أى من راسين ) كما قال أحد الظرفاء .

ومسرحية راسين « بريتانيكوس » ( ١٦٦٩ ) فى رأيه أكثر أعماله اتقانا ، وكثيرا ماتفضل على اندروماك ، شأنها شأن « فيدر » و « اتالى » .

---

(*) انفجر عرق فى مونفلورى وهو يمثلها ومات بعد قليل .

على أن القارىء المصرى لن يلتذها فى أغلب الظن مهما كان غارقا فى تاسيتوس ففيها أجنبيين السليطة ، وبريتانيكوس الشكاء وبوروس المتخبط ، ونارسيس القذر ، ونيرون الممتلىء شراً — فما من شخص هنا يظهر لنا تعقداً أو تطورا ، أو يبدى لنا أثرا من نبل خليق بأن يخفف فى موضع ما من أى مأساة جديرة بقلم شاعر .

وكما أن بريتانيكوس فتشت عن قصتها فى « قاعة الفظائع » التى ذكرها تاسيتوس ، فكذلك أخذت برينيس ( ١٦٧٠ ) قصة غرام امبراطور عن سطر موجز لسويتون يقول فيه « فأرسل لتوه كارها برينيس الكارهة من المدينة(١٢) » وتفصيل المسرحية أن تيطس الذى كان يحاصر أورشليم (٧٠ م) كان قد أغرم بالأميرة اليهودية . ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات ، إلا أنها تتبعه إلى روما خليلة له ، ولكنه حين برث العرش يدرك أن الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية ، فيصرفها بعبارات ملكية متدفقة تتميز بالإدراك السليم . وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت برضاء الجمهور والملك ، الذى لايد قد استشف بسرور بلاطه وانتصاراته فى وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب :

« أرايت بهاء هذه الليلة ؟ الا تمتلىء عيناك بعظمتها وأبهتها ؟ هذه المشاعل ، وهذا الحطب ، وهذا الليل ذو اللهب المقدس ، وهاتيك النسور ، وتلك الشعارات ، وهذا الجمع من الناس ، وهذا الجيش ، وذلك الحشد من الملوك ، هؤلاء القناصل ، وهذا السناتو — أولئك الذين قبسوا نورهم الساطع من حبيبى ، وهذا الأرجوان والذهب الذى يزداد تألقا بمجده ، وهذا الغار الذى مازال يقوم شاهدا على انتصاره ، وهذه العيون التى تراها قادمة من كل فج لتلتقى فيه وحده نظراتها الملهوفة ؛ هذه الطلعة الجليلة ، وهذه الحضرة الحلوة . وحق السماء ! بأى اجلال وبأى رضى تؤكد له كل القلوب سرائقتها به ! تكلم : أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

كما يخطر لى ، أنه لو كان القدر قضى بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده بمجرد النظر إليه(١٣) » .

امن العجب إذن ان نرى راسين ، وهوعلى هذا الحذق فى الزلفى ، ينال الحظوة السريعة عند الملك ؟

ونمر فى احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنا ، وكلها ما يزال يحتل خشبة المسرح الفرنسى : باريد ( ١٦٧٢ ) ، ومتردات ( ١٦٧٣ ) التى فضلها لويس على كل مسرحياته ، وإفجينى ( ١٦٧٤ ) ، التى وضعها فولتير فى صف واحد مع أتالى باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر(١٤) . وقد عرضت أفجيني أول مرة فى حدائق فرساى على ضوء الشمعدانات البلورية المعلقة فى أشجار البرتقال والرمان ، وعزف العازفون على الكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة المتفرجة ، وتقدم راسين ليشكر النظارة على أغلى تصفيق لقيه فى حياته . وحين أخرجت فى باريس امتد عرضها أربعين مرة فى شهور ثلاثة . وكان قد انتخب أثناء ذلك عضواً فى الأكاديمية الفرنسية (١٦٧٣) . وبدا أن سعادته قد اكتملت .

على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء ، إلا أن يكون الجمال فرحة لا تنتهى ، والثناء لايقطعه صوت ناشز . قال راسين لابنه « لقد طالما أبهجنى جداً ذلك الاستحسان الذى قوبلت به ، ولكن أقل لوم ناقد . . . كان يسبب لى دائماً من الضيق قدرا أكبر من كل السرور الذى يدخله على المدبج(١٥) » . فهولم يكن شديد الحساسية فحسب ، كما لم يكن بد من أن يكون ، بل ضيق الخلق ، يرد على كل كلمة نابية . وفى ذروة نجاحه وجد نصف باريس تنتقده ، لا بل تعمل على إسقاطه . كان كورنى قد عمر فوق ما ينبغى ، ولكن مريديه تذكروا ما اتسمت به مآسيه الأولى من نبرة بطولية وموضوعات ملحمية ، وما شاع فى بلاغته من نبل ، وذلك المستوى السامى الذى رفع إليه دواعى الشرف والدولة ، فوق أهواء القلب . واتهموا راسين بتلويث المسأساه بعواطف نصف مجنونة تنفعل بها مخلوقات خسيسة ،

وبادخال مغازلات حب القصور إلى المسرح ، وإغراقه بدموع بطلاته ، فصمموا على إسقاطه .

فلما عرفت أنه يكتب «فيدر» أقنع فريق من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة فى الموضوع نفسه . وكان للمسرحيتين نفس العنوان فى الأصل — فيدر وهيبوليت — وانبثقتا من أسطورة رواها يوريبيديس من قبل بما عهد فيه من قصد كلاسيكى فى العاطفة . ففيدر ، زوجة تيسيوس ، تولع ولعاً شديداً بهيبوليت بن ثيسيوس من زوجة سابقة ، ولكنها تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهمته فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً منه ، ونفى ثيسيوس ابنه البرىء ، الذى لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطىء تروزين . ولكن راسين غير ترتيب الأحداث ، فجعل فيدر تتجرع السم بعد سماعها بموت هبوليت . ومثلت مسرحية راسين فى الأوتيل دبورجون فى أول يناير سنة ١٦٧٧ ، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو . ولقيت التمثليتان نجاحاً متكافئاً إلى حين ، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان ، فى حين تعتبر تمثيلية راسين عادة رائعته الكبرى ؛ ودور فيدر تصبو إلى تمثيله كل الممثلات الفرنسيات ، كما يستهوى دور هاملت الممثلين التراجيديين فى المسرح الانجليزى* . ولقد بارى راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى فى الأسلوب الكلاسيكى ، فى عاطفية غرام فيدر ، وجعل هبوليت يتحرق شوقا الأميرة أريسيا ( وهذا مناقض الأسطورة ) . وتعلم فيدر بنبأ هذا الغرام ، ويعطينا راسين فى تفصيل منفعل دراسة للمرأة إذا ازدريت . وهو يخفف من هذه التحليقات الرومانسية بوصف قوى لخيل هيوليت المذعورة وهى تجره حتى يلقى حتفه .

وفى المقدمة التى يصدر بها راسين تمثيليته فيدر ( إذ بدأ يشتد فيه

---

(*) عند آدم سميث أن فيدر « ربما كانت أروع مأساة فى أى لغة » (١٦) .

الحافز الدينى كلما ضعف الحافز الجنسى ) يلوح بغصن الزيتون للبور — رويال فيول :

« لست أجروء على أن أؤكد لنفسى أن هذه ... خير مآسى ... ولكنى وأثق أننى لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة فى ضوء أفضل . فأتفه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً ، ومجرد التفكير فى الجريمة ينظر إليه هنا نظرة الاستهجان التى ينظر بها إلى الجريمة ذاتها ، وعثرات الحب ينظر إليها هنا كأنها عثرات حقيقية ، والعواطف المشبوبة لا تعرض على الأنظار إلا لترى الخلل التى هى السبب فيه ، والرذيلة مصورة فى المسرحية كلها بألوان تتيح لنا أن نراها ونكره شكلها الشائه . وتلك هى الغاية الصحيحة التى ينبغى أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب . ولعل هذه أن تكون وسيلة المصالحة بين الدراما المأساوية ، وكثيرين من الأشخاص المعروفين بتقواهم وتعاليمهم ، والذين أدانوها مؤخراً ، ولكنهم سيحكمون عليها حكما أكثر عطفاً لو عنى المؤلفون بتعليم جمهور النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم ، ولو ترسموا فى هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة(١٧) » .

ورحب آرنو ، المعروف بتقواه وتعاليمه ، بهذه النغمة الجديدة ، وأعلن رضاءه عن فيدر . ولعل راسين وهو يكتب المقدمة ، وقد بلغ الثامنة والثلاثين ، كان يتطلع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة بدل النساء الكثيرات . ففى أول يونيو سنة ١٦٧٧ تزوج زوجة أتته بمهر كبير . وقد اكتشف ما فى الحياة العائلية من أسباب الراحة ، ووجد من البهجة فى ابنه البكر أكثر مما وجد فى أكثر مسرحياته توفيقاً . وكانت غيرة مزاحميه ودسائسهم قد نفرته من المسرح ، فألقى جانباً الخطط والمذكرات التى كان قد أعدها لأربع مسرحيات ، واقتصر طوال اثنى عشر عاماً على كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين . لاسيما تأليف تاريخ للبور — رويال طابعه التبجيل والولاء البنوى .

ونغص عليه هذا الهدوء المثالى حادث مؤسف أليم . ذلك أن المحكمة

الخاصة التى كانت تحقق عام ١٦٧٩ فى تهم التسميم الموجهة ضد كاترين مونفوازان استلت منها اتهاما لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك . وأدلت «لافوازان» بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززه • وإذ كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالأعدام ، فأنها لم تكن تخسر شيئا باتهام غيرها زوراً ، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصديقاتها هى الكونتيسة سواسون ، وكانت عضوا فى العصبة التى قاومت راسين فى «غرام فيدر(١٨)» . ومع ذلك كتب لوفوا فى أول يناير سنة ١٦٨٠ إلى المفوض بازان دبيزون يقول « إن الأمر الملكى بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه » ولكن حين تقدم التحقيق وبدا أنه سيورط مدام دمونتسبان ، أمر الملك بحظر نشر سجل المحاكمة ، ولم يتخذ أى إجراء ضد راسين(١٩) .

وأظهر لويس ثقته المستمرة فى الكاتب المسرحى . ففى سنة ١٦٦٤ رتب له معاشا ؛ وفى سنة ١٦٧٤ خلع عليه وظيفة شرفية تغل له ٢٫٤٠٠ جنيه فى العام فى إدارة المالية ؛ وفى سنة ١٦٧٧ عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاط ؛ وفى سنة ١٦٩٠ أصبح الشاعر موظفا دائما فى معية الملك ، فأتته الوظيفة بمورد إضافى قدرة ألفان من الجنيهات • وفى سنة ١٦٩٦ بلغ من الثراء مبلغا أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك .

وقد أعان اداؤه النشيط لواجباته مؤرخا ملكيا على سحبه من المسرح . وكان يرافق الملك فى حملاته ليسجل الأحداث تسجيلا أدق . وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلا نفسه بتربية ولديه و بناته الخمس ، وكان يود أحيانا ، وسط صخبهم وضجيجهم ، لو أنه كان راهبا • وما كان ليكتب أى مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتنون لجأت إليه فى أن يكتب مسرحية دينية بريئة من كل مايتصل بالغرام ، تمثلها الفتيات اللائى جمعتهن فى أكاديمية سان سير • وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل ، ولكن دمانتنون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة . ورغبة فى ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته « إستير » .

ولم يكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل ، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة ، وأحاط بكل التاريخ المعقد المدون فى العهد القديم . وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن ، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة . فلما أخرجت ( ٢٥ يناير سنة ١٦٨٩ ) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة . واشتد الطلب على مشاهدتها ، من الكهنة أولا ، ثم من الحاشية ، وعرضتها أكاديمية سان — سير اثنتى عشرة مرة أخرى . ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة ١٧٢١ بعد موت الملك بست سنين ؛ وعندها ( بعد أن فقد الدين الرعاية الملكية ) لم تلق إلا نجاحاً متوسطا .

وفى ٥ يناير سنة ١٦٩١ أخرجت سان ـ سير أحدث مسرحيات راسين وهى « أتالى » . وأتاليا هى الملكة الشريرة التى ظلت ست سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية ، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهان (٢٠) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس ، يدفىء صدورهم الإيمان اليهودى أو المسيحى الأصيل ، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القاتمة مثبطة لهم . وبدا أن التمثيلية صفقت لطرد الهيجوتوت وانتصار الكهنوت الكاثوليكى ، ولكنها من جهة أخرى حوت — فى إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود — تنديدا قوياً بالحكم المطلق :

« إنك وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بفتنته السامة ، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق ، وسحر المتملقين الجبناء . عما قليل سيقولون لك إن أقدس القوانين ... ينبغى أن تطيع الملك ، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته ، وأنه يجب أن يضحى بكل شىء فى سبيل مجده الأعلى . . . وا أسفاه ! لقد ضللوا أحكم الملوك (٢١) » .

وقد ظفرت هذه الأبيات بالاستحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر ،

ولعلها حدت بفولتير وغيره(٢٢) إلى أعتبار أتالى أعظم الدرامات الفرنسية. على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً عن خضوع الملوك للكهنة .

أما لويس ، الذى بز الآن راسين فى تقواه وورعه ، فلم ير بالتمثيلية بأساً . وواصل استقبال راسين فى القصر رغم ما عرف عن الشاعر من تعاطف مع البور — رويال . ولكن فى سنة ١٦٩٨ حجب الملك رضاءه . ذلك أن راسين ، بناء على طلب مدام دمانتنون ، وضع بياناً بألوان العذاب التى ابتلى بها الشعب الفرنسى فى أواخر الحكم . وفأجاها الملك وهى تقرأ الوثيقة ، وأخذها منها ، وانتزع منها اسم كاتبها ، وأخذته سورة الغضب وقال « الكونه شاعراً فحلا يحسب أنه يعرف كل شىء ؟ ألأنه شاعر كبير يريد أن يكون وزيراً أيضاً ؟ » أما مانتنون فقد أكدت لراسين وهى تفيض فى الاعتذار له أن الزوبعة ستمر سريعاً . ولقد مرت ؛ وما لبث راسين أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالا كريماً ، وإن بدا له أقل حرارة من ذى قبل(٢٣)* .

أما الذى قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً فى الكبد . وقد أجريت له جراحة ، وخف ألمه فترة ، ولكنه لم يكن واهما حين قال : لقد أرسل الموت لى كشف حسابه(٢٦) وجاء بوالو ، وهو يشكو المرض ، ليلازم صديقه العليل . وقال راسين « إنى مغتبط لأنه سمح لى أن

---

(*) يقول ابن راسين : « لقد عاد إلى القصر غير مرة ، وكان على الدوام يتشرف بالحديث إلى جلالته(٢٤) » أما سان — سيمون فيروى قصة غير هذه : فهو يزعم أن راسين فقد الحظوة لأنه انتقد ملاهى سكارون فى حضرة مدام دمانتنون والملك « وهنا احمر وجه الأرملة المسكينة ، لا للخيل من سمعه الرجل المشاول ، بل لسماعها اسمه ينطق به فى حضرة خلفه . كذلك ارتبك الملك ... وانتهى الأمر بأن صرف الملك راسين زاعما أنه ذاهب إلى عمله ... ولم يكلم الملك لا مدام دمانتنون بعدها راسين حتى ولا نظرا إليه » . وهذا التعليل لسخط الملك على راسين مرفوض الآن عموما (٢٥) .

أموت قبلك(٢٧) » وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البور — رويال :

« أود أن تحمل جثتى إلى البور ـ رويال ـ دى ـ شان ، وأن تدفن فى مقبرته .. إننى بكل تواضع التمس من الأم الرئيسة والراهبات أن يمنحننى هذا الشرف ، وإن كنت عليما بأننى لا أستحقه ، سواء لما شاب حياتى الماضية من مخازٍ ، أو لتقصيرى فى الإفادة من ذلك التعليم الممتاز الذى تلقيته من قبل فى ذلك الدير ، وما رأيت فيه من مثل رائعة فى التقوى والتوبة ... ولكن كلما ازدادت إساءتى لله ازدادت حاجتى لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع(٢٨) » .

ومات فى ٢١ إبريل سنة ١٦٩٩ وقد بلغ التاسعة والخمسين . وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبنائه حتى مات أخرهم .

وتضع فرنسا راسين فى صف أعظم شعرائها ، لأنه هو وكورنيى يمثلان أرقى ماوصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور. ولقد تقبل - بناء على حض بوالو — تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث : فبلغ بذلك تركيزا لا يبارى للوجدان والقوة من خلال عمل واحد يقع فى مكان واحد ويكمل فى يوم واحد . وقد تجنب تطفل الحبكات الثانوية ـ وكل مزج بين المأساة والملهاة ، وأخرج العامة من مآسيه ، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات . وقد نقى لغته من كل الألفاظ التى قد تعد نابية فى الصالونات أوالبلاط ، أو تكون محل استنكار فى الأكاديمية الفرنسية . وشكا من أنه لايجرؤ على أن يورد فى تمثلياته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام ، وإن حفل بها شعر هوميروس(٢٩) » وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس فى الأدب حديث الأرستقراطية الفرنسية وعاداتها . وقد حدت هذه القيود من مجال راسين . وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير ، على شاكلة سابقاتها — وفى كل منها كانت العواطف واحدة .

على أن راسين شارف الرومانسية فى طابع المشاعر التى عبر عنها وفى حدتها ، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية ، فكرة العقل يطغى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث . وبينما نجد العاطفة فى كورنبى تؤكد على الشرف ، والوطنية ، والنبالة ، نجدها فى راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة ؛ ونحن نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه ، ومدام دسكوديرى ، ومدام دلافايت . وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة ، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس ، الذى تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى أفراط فى الحماسة والوجدان . وفى هاملت أو مكبث من القصد فى الحديث أكثر مما فى أندروماك أو فيدر . وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه فى أن « أول قاعدة » للدراما « هى أن تسر وأن تمس القلب(٣٠) » وقد فعل هـذا بتعامله مع القلب ، وباختياره شخوصه الرئيسيين من بين أفراد — كانوا عادة من النساء — مرهفى العاطفة ، وتحويله تمثيلياته إلى سيكولوجية العاطفة .

وقد وافق على الحظر الكلاسيكى للحركة العنيفة على المسرح ، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط . وألقى هذا عبئاً ثقيلا على أسلوبه ، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب ، وكان استرساله فى الأبيات السكندرية المتتابعة — وهى ذات المقاطع الاثنى عشر والقوافى المزدوجة — هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتابة المملة ؛ فنحن نفتقد فى راسين وكورنبى ما يطالعنا فى الشعر الإليزابيثى المرسل من مرونة ، وطبيعية ، وتنوع لا آخر له . ويا له من جهد عبقرى ذلك الذى اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل ، بقوة الأسلوب وجمله ! أن راسين وكورنبى ينبغى ألا يقرءا ، بل يجب أن يسمعا ، وحبذا أن يكون ذلك ليلا فى فناء الأنفاليد أو اللوفر .

والمفاضلة بين راسين وكورنبى هواية قديمة لدى الفرنسيين . أما مدام دسفينييه ، فأنها بعد أن شهدت « بايزيد » وقبل أن تمثل — إفجينى

أو فيدر — انحازت إلى كورنى بحماستها المألوفة . وقد تنبأت فى تهور ، ولكن ربما بحق ، بأن :

«راسين لن يستطيع أبدا أن يتجاوز .. أندروماك ... فتمثيلياته مكتوبة للآنسة شانمسليه . . وسوف يتضح حين يكبر ، ويكف عن الحب ، هل اخطأت الحكم أم أصبت . إذن فليعش صديقنا كورنى طويلا ، ولنغتفر له الأبيات الرديئة التى نصادفها فى شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التى كثيراً ماننتشى بها » . . .

وهذا على العموم رأى كل ذى ذوق سليم (٣١) . ولكن فولتير الذى اضطلع بنشر أعمال كورنى والتعليق عليها ، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده لأخطاء المسرحى الكبير وفجاجاته ولغته الطنانة . كتب يقول « أعترف أنى بنشرى كورنى أصبحت من عباد راسين (٣٢) » وقد أقر الزمن بهذه الأخطاء ، واغتفرها لرجل لم يحظ بما حظى به راسين من ميزة المجىء بعد كورنى . فالارتقاع بالدراما الفرنسية من مستواها السابق إلى مكانة «السيد» « وبوليوكت » كان إنجازاً أشق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنغوم الذى نجده فى « أندروماك » « وفيدر . إن كورنى وراسين همـــا الموضوعان الذكر والأنثى فى شعر القرن العظيم - التعبير القوى عن الشرف والحب . . وعلينا أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما الكلاسيكية الفرنسية وقوتها ، تماماً كما يجب ان نأخذ ميكلانجلو ورفائيل معاً إن اردنا ان نحكم على النهضة الإيطالية ؛ او بيتهوفن وموتسارت إن اردنا ان نفهم الموسيقى الألمانية فى ختام القرن الثامن عشر .

قال ديفدهيوم ، وكان اسكتلنديا حكيما ، ضليعاً فى لغة الفرنسيين وآدابهم ، « فى المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان ، الذين تفوقوا كثيراً على الإنجليز (٣٣) » وذلك حكم كان خليقا بأن يدهش راسين ذاته ، الذى عبـــد سوفوكليس باعتباره الكمال مجسماً ، وان جرؤ على منافسة

يوريبيديس . وفى هذا نجح ، وهو مايستحق عليه الثناء حقاً . فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شيكسبير وكورنبى ، ولم يدن منه إنسان بعد ذلك سوى جوته .

## ٤ — لافونتين : ١٦٢١ — ١٦٩٥

فى ذلك العصر ، عصر الخصومات الأدبية الصارخة ، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة ، نصف الأسطورية ، بين بوالو ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين — « ثلة » الأصدقاء الأربعة .

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة . ولد كأصحابه لأسرة متوسطة ؛ ولا غرو فالأستقراطية فى شغل بفن الحياة عن الفن . وكان مسقط رأسه شاتو — تييرى فى شمبانيا ، وأبوه المدير المحلى للمياه والغابات ، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به ، وعشق الحقول ، والغابات ، والأشجار ، والأنهار ، وكل ساكنيها ، وتعلم عادات العشرات من أنواع الحيوان ، وتكهن فى تعاطف بغاياتها ، وهمومها ، وأفكارها ، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجرى الكلام على السنة هؤلاء الفلاسفة متعددى الأرجل ، وأصبح « إيزوبا » آخر مذاباً بقصصه الخرافية فى ذاكرة الملايين .

وكانت نية ابويه أن يعداه للكهانة ، ولكن لم يكن به ميل للخوارق . وحاول ان يمارس القانون ، ولكنه وجد الشعر أيسر فهما . وتزوج فتاة غنية ( ١٦٤٧ ) وانجب منها ولدا . ثم اتفق مع زوجته على الانفصال ( ١٦٥٨ ) وذهب الى باريس ، وأبهج فوكيه ، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشا قدره ألف جنيه ، شريطة ان يتحفه بأشعاره اربع دفعات فى السنة . فلما سقط فوكيه وجه لافونتين الى الملك التماسا شجاعا يرجوه فيه الصفح عن رجل المال . وكانت النتيجة انه لم يصطل قط بعدها فى شمس الملك . فلما جرد من

معاشه ولم يكن لديه اى فكرة عن كسب قوته ، آوته واطعمته الدوقة دبويون التى التقينا بها من قبل فى صفوف الفروندبات . واصدر وهو مستظل بجناحها ( ١٦٦٤ ) أول كتاب فى « حكاياته » وهو مجموعه من الأقاصيص الشعرية ، مكشوفة على الطريقة البوكاشية ، ولكنها مروية فى بساطة ساحرة مالبثت ان جعلت نصف فرنسا ، حتى العذارى الخجولات ، يقرأنها (*) .

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية ، دوقة أورليان الارملة ، قصر اللكسمبورج بوصفه وصيفا لها . وهناك كتب مزيدا من حكاياته ، ومن هناك دفع الى المطبعة بالكتب السته الاولى من قصصه الخرافية ( ١٦٦٨ ) . وقد زعم انها صياغة جديدة لخرافات إيزوب اوفيدروس ، وكذلك كان بعضها ، وبعضها اخذ عن قصص الهند الاسطورية Bidpai وبعضها من خرافات فرنسا ، ولكن اكثرها خلق من جديد فى ذلك الغدير الذى يتدفق فى ذهن لافونتين وشعره . وكانت اول قصة خرافية تلخيصا غير مقصود لحياته الخلية الطروب :

« بعد أن أنفقت الجرادة الصيف كله غناء ، ألفت نفسها حين أقبل الشتاء مملقة لاتملك ذبابه ضئيلة ولادودة حقيرة ، فمضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتسألها ان تقرضها شيئا من الحب تقتات به حتى يقبل الموسم الجديد . وقالت « سأرد لك دينى قبل الحصاد ، واقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه . اما النملة فلم تكن ممن يقرضون ، وهذا اقل عيوبها . لذلك قالت للسائلة « وماذا كنت تفعلين فى الصيف ؟ » (٥)

---

(*) خذ مثلا قصة « صانع الآذان » . فالسير وليم يذهب لقضاء مصلحة فى المدينة ويترك زوجته أليكس حبلى . وينذرها قريبها أندريه بأنه يستنتج من لون وجهها أن طفلها سيولد ناقصاً أذنا . ويعرض عليها أن يكون جراحاً لها ، ويفهمها أن نوبة غرام كفيلة بتزويد الطفل بالأذن الناقصة . وتقبل الوصفة ، وتتداول منها عدة جرعات ، حتى ليخطر لها أن الطفل سيكون له من الآذان أكثر من اثنتين . فاذا عاد وليم صحح التوازن الأخلاقى باغواء زوجة أندريه (٣٤) .

obeikandi.com

« كنت أغنى ليل نهار لكل وافد ، فلايسؤك هذا» . « كنت تغنين : يسعدنى أن أسمع هذا . عليك اذن أن ترقصى الآن » .

كان لافونتين أحكم من ديكارت ، الذى ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لاتفكر ؛ فقدأحبها الشاعر ، وأحس بتفكيرها ، ووجدفيها كلها دروس الفلسفة العملية . وافتتنت فرنسا بتلقى الحكمة فى جرعات سهلة الهضم كهذه . وأصبح كاتب هذه الخرافات اكثرالمؤلفين قراء فى بلاده . واتفق النقاد مرة فى حياتهم مع الشعب ، وأثنوا عليه فيمن أثنوا ؛ ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عليما بالفرنسية فى لونها الربفى ورائحتها الترابية ، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيعة ، وطرق التعبير الحلوة ، والصورة الحية المحكمة ، ماجعل كل البورجوازيين مدعى النبل فى فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم ، بل حشراتهم ، تنطق بالشعر طوال الوقت . قال فونتين « إنى استخدم الحيوانات لتعليم الناس(٣٥) » .

وفى ١٦٧٣ ماتت مرجريت اللورينية وألفى الشاعر نفسه غارقا فى الديون ، وهو الذى كان يغنى فى غير تدبير للمستقبل ، ولم يحسن التصرف فى الأجور المتواضعة التى أتت بها كتبه . على أنه كان اكثر حظا من جرادته ، لأن مدام دلاسابلبير ، المرأة المثقفة العطوف ، آوته وأطعمته ورعته بحدب الأم الرءوم فى بيتها بشارع سانت ـ أونورية ، وهناك عاش فى قناعة هادئة الى أن ماتت فى ١٦٩٣ . يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين : اولهما ينام فيه ، والاخر لايعمل فيه شيئا . ووصفه لابرويير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والحجر بكلام رشيق أنيق ، ولكنه (٣٦) هو نفسه كان « متبلدا ، ثقيلا » ، غبيا فى الحديث(٣٧) . على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن فى وسعه أن يكون محدثا مرحا إذا وجد آذانا تلائم مزاجه(٣٨) . وقد أذاعت شرود ذهنه عشرات النوادر ، الأسطورية الى حد كبير . من ذلك أنه قال مرة معتذرا عن وصوله الى العشاء متأخرا « عدت لتوى من جنازة

نملة ، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة ، ثم رافقت الأسرة فى رجوعها للبيت . (٣٩)»

وقدقاوم لويس الرابع عشر انتخابه عضوا فى الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذى يحتذى ، ثم لانت قناته فى النهاية (١٦٨٤)، وقال ان لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه . ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقا بين الفضيلة والخطيئة ، انما عرف الفرق بين الطبيعى وغير الطبيعى ، فقد تعلم أخلاقياته فى الغابات . وكان كموليير لايشعر بأى انجذاب للبور — رويال ، هؤلاء « المجادلون البارعون » كما وصفهم ، الذين « تبدو لى دروسهم باعثه على الغم بعض الشىء(٤٠) » وانضم حينا إلى « شلة » أحرار الفكر فى « التامبل » ، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق ، لاح له أن قد آن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة ، ومع ذلك فقد تساءل « أكان القديس أوغسطين حكيما حكمة رابليه(٤١) ؟ » ومات فى ١٦٩٥ وقد بلغ الرابعة والسبعين . وكانت ممرضته على ثقة من خلاصه الأبدى ، لأنه على حد قولها « كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد فى الحكم عليه بالهلاك(٤٢) » .

## ٥ — بوالو : ١٦٣٦ - ١٧١١

فى اللقاءات التى جمعت الأصدقاء الأربعة فى شارع فيو كولومبييه كان نيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث ، وهو الذى وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور جونسون وثقته فى حانة « رأس الترك » بحى سوهو . وكان كجونسون محدثا أهم منه مؤلفا ؛ وخير أعماله شعر وسط ، ولكن أحكامه كان لها فى ميدان الأدب أثر أبقى مما كان لأحكام لويس الرابع عشر فى السياسة . وقد أعانت صداقته وتقريظه الناقد لموليير وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما .

كان الطفل الرابع عشر لكاتب فى برلمان باريس • وإذ كان منذور للكهانة فقد درس اللاهوت فى السوربون • ولكنه تمرد ، ودرس القانون وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه ( ١٦٥٧ ) ، مخلفا له ميراثا يكفيه وهو يقرض الشعر • وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه ، ثم راح يصدر أحكامه على زملائه فى اثنتى عشرة اهجية ( ١٦٦٦ وما بعدها ) • ذلك أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياع[٤٣] روعه ، فهاجمه كأنه جيش من الجراد ، وسمى بعضهم بأسمائهم ، فخلق له أعداء بقوافيه • وجر على رأسه أيضا سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التى كانت السيدتان سكوديرى ولافايت تضيعان بها ورق فرنسا ووقتها • وقد امتدح القدامى ، وامتدح من بين المحدثين ماليرب وراكان ، ومولير وراسين . قال « أحسبه من حقنا ان نسمى الشعر الردىء رديئا دون أن نؤذى الضمير أو الدولة ، وأن يكون لنا مطلق الحق ان نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبى[٤٤] » . على أن هذه الاهاجى تضجرنا هى الأخرى لأن هدفها قد تحقق : فالشعراء الذين أدانتهم هدموا هدما لم يبق على أثرهم فى ذاكرتنا أو فى اهتمامنا ؛ يضاف الى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا ، لاسيما اذا كنا مؤلفين ، يؤثرون النقاد الذين يرشدوننا الى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث •

وبعد أن ذهب بوالو فى اهاجيه مذهب جوفينال الصارم ، خفف من غلوائه بالتزام مذهب هوراس الأكثر اعتدالا ، ووصل الى أسلوب ألين فى سلسلة من الرسائل ( ١٦٦٩ ـ ٩٥ ) • وهذه الرسائل الشعرية هى التى أغرت لويس بدعوته الى البلاط • وسأله الملك ما أفضل شعره فى ظنه • أما بوالو الذى كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئا من شعره المنشور ، ولكنه تلا بعض شعره فى مدح الملك العظيم ، وكان أبياتا لم تطبع بعد قال عنها إنها أقل شعره رداءة • وأجازه لويس بمعاش قدره ألفان من الجنيهات[٤٥] ، وأصبح شخصا « مرضيا عنه » فى البلاط • قال لويس « أحب بوالو لأنه سوط تأديب ضرورى نصلته على ذوق كتاب الدرجة

الثانية السقيم(٤٦)» . وكما أن لويس ساند موليير فى حملته على المتعصبين ، كذلك لم يفه بأى احتجاج حين نشر بوالو ملحمة ساخرة سماها « لوتران» ( ١٦٧٤ ) ، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين . وفى ١٦٧٧ عين الشاعر الهجاء مؤرخا رسميا مـــع راسين ، وفى ١٦٨٤ قبل نهائيا فى الأكاديمية بأمر صريح من الملك ، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم .

أما القصيدة التى طفت به فوق دوامات الزمن فهى « فن الشعر » ( ١٦٧٤ ) التى ضارعت فى تأثيرها النموذج الذى نسجت على منواله ، وهو كتاب هوراس Ars poetica ، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء الى أن « بارناس » جبل وعر ، فليستوثقوا اذن قبل أن يشرعوا فى ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئا يستحق أن يقال ، شيئا يعزز الحقيقة ويعين على الادراك والذوق السليمين . وهو يقول لهم ناصحا : نوعوا حديثكم ، فان أسلوبا بالغ التكافؤ شديد التماثيل ( كأسلوب بوالو ) يحملنا على النوم ، و « حبذا الشاعر الذى ينتقل ، بلمسة رقيقة ، من الخطير الى الخفيف ، ومن السار الى العنيف (٤٧) » . «وأرهفوا آذانكم لايقاع ألفاظكم . واتبعوا قواعد ماليرب فى اللغة والأسلوب . وادرسوا القدامى لا المحدثين : هومر وفرجل فى شعر الملاحم ، وسوفوكليس فى المأساة ، وتيرانس فى الملهاة ، وهوراس فى الهجاء ، وتيوقريطس فى شعر الرعاة » . «اسرعوا فى بطء ، وضعوا انتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن ينفت ذلك فى عضدكم ... وأضيفوا اليه قليلا ، واحذفوا منه (٤٨) كثيرا . أحبوا من ينتقدونكم ، وصححوا أخطاءكم دون تذمر وأنتم تنحنون لحكم العقل (٤٩) . واعمـــلوا للمجد ، ولا تجعلوا الكسب الخسيس هدفا لجهدكم (٥٠) . فاذا كتبتم درامات فراعوا الوحدات ، واجعلوا الفعل الواحد ، المكتمل فى مكان واحد ويوم واحد ، يبقى المسرح ممتلئا بجمهوره الى النهاية (٥١) . ادرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة ،

فكلاهما غنى بالنماذج ، ولعل هذا هو السر فى الفوز الذى حققه موليير لفنه (٥٢) » .

وانضم بوالو الى موليير فى السخرية من « المتحذلقات » واحتقر شعر الحب المتكلف الذى أضعف الشعر الفرنسى وقابل بين هذه العاطفية الكاذبة وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الاداب القديمة لضبط المشاعر . وصاغ مبادىء الأسلوب الكلاسيكى ، وأجملها فى بيتين شهيرين « أحبوا العقل اذن ، ولتقبس كتاباتكم منه بهاءها وقيمتها (٥٣) » فلازيف فى العاطفة ، ولا انفعال ، ولا كلام طنان ، لا تحذلق ، لا تكلف ، ولا غموض التباهى والغرور . فالمثل الأعلى فى الأدب ، كما فى الحياة ، هو ضبط رواقى للنفس ، و « لا تزيد أو افراط » .

وقد أحب بوالو موليير ، ولكنه أسف على هبوطه الى درك المسلاة « الفارص » . وأحب راسين ، ولكن يبدو أنه لم يفطن الى تمجيده الرومانسى للوجدان ، ولم يلحظ بطلاته المتفجرات بالانفعالات ـ هرميون ، وبرينيس ، وفيدر . والمقاتل لابد مبالغ فى نصيبه من الحقيقة . ولقد كان فى بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله باسكال من أن للقلب دواعيه التى لا يفهمها الدماغ ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملاسة الرخام وبرودته . لقد سمح هوراس بالوجدان فقال « إن أردتنى أن أبكى » أى أن أحس مما تكتب ، « فعليك أن تبكى أنت أولا » أى عليك أن تحس أنت بالأمر . ان فن العصور الوسطى وأدبها ظلا محجوبين عن عين بوالو .

وكان اثر تعليمه هائلا . فقد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام قواعده الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة . وشاركت هذه القواعد فى تشكيل أسلوب الأدب الانجليزى فى « العصر الأغسطى » الذى قلد شاعره بوب فى صراحة « فن الشعر » فى كتابه « مقال فى النقد » . وكان تأثير بوالو ضارا ونافعا . فهو باستنكارة الخيال والوجدان ، وضع صماما

على الشعرفى فرنسا بعد راسين ، وفى انجلترة بعد درايدن . واتخذ الشعرفى أفضل نماذجه شكل النحت بالازميل ، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه . ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل الى ساحة الأدب المحض ، فقد كتب الكثير جدا من اللغو عن الحب والرعاة ، واحتاجت أوربا الى احتقار بوالو الغاضب حتى تطهر ذلك الجو الأدبى ، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية . وربما كان الفضل لبوالو فى ارتفاع موليير من « الفارص » الى الفلسفة ، وفى محاولة راسين البلوغ بفنه الى مرتبة الكمال .

وكان مما يتلاءم وطبيعة بوالو تماما مسلكه بعد أن اشترى بيتا وحديقة فى أتوى نفضل نفحة من نفحات الملك ( ١٦٨٧ ) ، فهو لم يذكر شيئا فى كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم الا أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم « دسبريو » . هناك عاش أكثرما بقى له من أجل فى هدوء بسيط ، لايزور البلاط إطلاقا ، ويرحب ترحيبا حارا بأصدقائه . وقد لاحظ الناس ان « له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل انسان(٥٤) » . وكان فيه من الشجاعة ما حمله على الإعراب عن عطفه على البور رويال ، وعلى أن يخبر يسوعيا بأن رسائل بسكال الاقليمية احدى روائع النثر الفرنسى . وقد عمر بعد موت جميع أفراد الجماعة التى كان منظرها المرموق : نوليير لقى ربه منذ أمد بعيد ، ثم لحق به لافونتين فى ١٦٩٣ ، ثم راسين فى ١٦٩٩ ، وتحدث الهجاء العجوز العليل بتأثر عن « الأعزاء الذين فقدناهم ، والذين اختفوا كأنهم حلم انسان استيقظ من نومه (٥٥) » وحين دنت منيته غادر أوتوى وذهب ليموت (١٧١١) فى مسكن كاهن اعترافه بصومعة النوتردام ، مؤملا ألا يجرؤ الشيطان على أن يمسه بسوء هناك .

## ٦ ـ الاحتجاج الرومانسى

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية — قواعد العقل ، والاعتدال ، وضبط النفس — إقبال كورنيى العجوز وراسين الشاب . ذلك أن مالهن كان عالم الوجدان والرومانس ، وقد حفزت « زيجات المصلحة » التى كن يعقدنها أوهام الغرام أكثر مما صدتها . ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو — جنبا إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية — حتى تتضخم حجما وتلقى استحساناً واسعاً وتؤثر تأثيراً دولياً . ولم تكن سيدات المجتمع فى فرنسا ليشبعن من مثل هذه الروايات ، ولا كن يجدنها مفرطة فى الطول ، وآية ذلك أنه حين توقف « جوتييه دلا كالبرونيد » عن المضى فى روايته « كليوبطرة » بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء ( ١٦٥٦ ) ، رفضت خطيبته أن تتزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين (٥٦) .

وقد استرقت الآنسه مادلين دسكوديرى قلوب نصف فرنسا بروايتها « آرتامين أو كورش الكبير » ( ١٦٤٩ ـ ٥٣ ) ، و « كليلى » ( ١٦٥٤ ـ ٦٠ ) وكلتاهما فى عشرة مجلدات . وأشبع غرور المجتمع الفرنسى أن يجد الشخوص فى هذا الإنتاج الرومانسى الغزير ، تحت أسماء مستعارة ، نصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم . وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات ، وتعلموا فنون التنهد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم ، وأصبحت الآنسة دسكوديرى نفسها تسمى « سافو » ، وكذلك كانت تنادى فى الصالونات إلى نهاية عمرها الذى بلغ أربعة وتسعين عاماً وقد كتبت لتسر أخاها جورج ، ونشرت كتبها تحت اسمـــه ؛ وآثرت أن ترعاه على أن تتزوج . وظل سلطانها على النساء المثقفات والرجال المعطرين إلى أن غيرت مسرحيتا موليير « المتحذلقات المضحكات » و « النساء العالمات » من اتجاه الأذواق الأدبية ، وهنا حبست مادلين فى شجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر . والذين يشكون

القراء قد يجدون إلى اليوم فى صفحات « كورش الكبير » الخمس عشرة ألف ، أو صفحات « كليلى » ، العشرة الآلاف ، فقرات تتميز برقة العاطفة ، أو تنفرد بتحليل الخلق . كذلك تستحق لا سكوديرى أن تتذكرها لما قامت به من جهد فى سبيل النهوض بتعليم النساء فى فرنسا .

وأما « مارى مادلين بيوش دلافيرن » ، التى أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت ، فهى شخصية أكثر فتنة ، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب ، بل عاشت أيضاً قصة أشهر . وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة ، ثم ذهبت لتعيش فى أوفرن بعد زواجها ( ١٦٥٥ ) . ولكنها حين وجدت الحياة هناك مملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (١٦٥٩) ، وذهبت إلى باريس ، وانضمت إلى الجماعة التى تلتقى فى قصر رامبوييه . ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا ، وخلدتها بعد حين فى مذكرات تفيض محبة . وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينييه التى كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً « لم تحجب سماء صداقتنا أقل سحابة ، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها فى نظرى ، فقد كان شذاها على الدوام نضراً جديداً (٥٢) » . وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً ، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسى . وسنلتقى بمزيج نادر من الحب والصداقة فى علاقات مدام دلافاييت بلاروشفوكو .

وقد وقعت على الجديد الثورى حين قررت أن تبارز بقلمها الآنسة دسكوديرى . ذلك أنها كتبت رواية فى مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتى صفحة . واعتنقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما فى نصه الأصلى ، فكل جملة تحذف تضيف جنيهاً ذهبياً لقيمة الكتاب ، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً . وبعد أن نشرت أعمالا صغيرة ألفت ( ١٦٧٢ ) ونشرت ( ١٦٧٨ ) رائعتها المسماه « أميرة كليف » . وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستعارات ) هى

مثلث ذو مماس . فالآنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن فى تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة . وتتزوجه عملا بنصيحة أمها ، ولكنها لا تشعر نحوه شعوراً أحر من الأحترام . وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهيم بها لتوه ، وتصده هى فى إحساس بالفضيلة ، ولكن الحاحه المحموم يمس قلبها ، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً . وتعترف بهذا التطور لزوجها ، وتتوسل إليه أن يبعدها عن القصر وعن التجربة ، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفية له ، فيخترمه الهم حتى يقتله ، وكأن قرنيه الوهميين خرقا حلقه . أما الأميرة فتصد الدوق وضميرها يبكتها على موت الأمير ، وتكرس مابقى لها من عمر لأعمال البر . وقد علق « بيل » الشكاك على القصة بقوله : لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت فى فرنسا لمشى ألفا ومائتى ميل ليراها (٥٨) .

ونشر الكتاب غفلا من اسم المؤلفة ، ولكن سرعان ما استقر رأى الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك . قالت الآنسة سكوديرى : ( لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية ... قيل لى أنها كتبت على نحو يثير الأعجاب(٥٩) ) ، ولكنها أضافت « أنهما لم يعودا فى سن تسمح لهما بالاشتراك معاً فى أى عمل غير هذا (٦٠) ) . ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكر تأليف الرواية . وكتبت لاسكوديرى تقول « إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تبرأ منها أبوها وأمها » . أيا كان الأمر ، فقد أجمع الكل على انها أروع رواية كتبت فى فرنسا إلى ذلك الحين . واعترف فونتنيل بأنه قرأها اربع مرات ، وكان رأى بوالو ، عدو الرومانس ، فى مدام دلافاييت انها « ابدع عقل وافضل كاتبة بين نساء فرنسا » . ويقر التاريخ لأميرة كليف بأنها من اول الروايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها . وهى الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التى ما زال فى الإمكان قراءتها دون ما ألم .

## ٧ ـ مدام دسفينييـــه

### ١٦٢٦ — ٩٦

ولكن بقى من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات — من تأليف امرأة أيضا — فى الامكان قراءتها فى بهجة مستسلمة حتى فى نبض زماننا السريع . والمؤلفة ، وهى مارى درابوتان — شانتال،فقدت أبويها فى طفولتها وورثت ثروتهما الكبيرة . وقد شارك فى تعليمها نفر من خيرة العقول فى فرنسا ، ونشأتها خيرة الأسر فى فرنسا على فنون الحياة . فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنرى ، مركيز دسفينييه ، ولكن هذا الزير كان يحب مالها اكثر من شخصها، وبدد بعضه على خليلاته ، وبارز خصما بسبب إحداهن ،وقتل فى المبارزة (١٦٥١) . وحاولت مارى أن تنساه ، ولكنها لم تتزوج بعده ، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها . ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسى — رابوتان كانت «ذات مزاج بارد»(٦١) أو لعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الامومة فتحققها . وخطاباتها تفيض سعادة ، كلها تقريبا سعادة الامومة.

ولقد أحبت المجتمع بقدر ماتشككت فى الزواج . وكان لها ، وهى الارملة الشابة التى تملك ثروة بلغت ٣٥٠٫٠٠٠ جنيه (٦٢) ، خطاب كثيرون من النبلاء ـ تورين ، وروهان، وبوسى... ولم ترمعنى لطردهم جميعا الا واحدا، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة . وكان اصدقاؤها يحبونها باخلاص أكثر صدقا — ومنهم دريتز ، ولا روشفوكو ، ومدام دلافاييت ، وفوكيه . أما الأول والثانى فقد أقصيا عن القصر لاشتراكهما فى حرب الفروند ، واما الأخير فالثروة التى لم يستطع تحليلها ، ولم تلق مدام دسفينييه ، الوفية وفاء حارا للاربعة على السواء ، ترحيبا فى الرحاب الملكية المقدسة وإن نالت كلمات متفضلة من الملك فى حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان ـ سير . اما فى خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

تبتهج بصحبتها ، لأنها كانت تملك كل مفاتن المرأة المثقفة ، كانت تتكلم بنفس الحيوية التى تكتب بها ، وذلك اطراء يناقض إطراء ألفناه أكثر منه ، فطالما يسدى الينا النصح ، ربما فى غير تبصر ، بأن نكتب كما نتكلم .

وقد بقى من رسائلها أكثر من الف وخمسمائة ، وجلها موجه لابنتها ، فرنسواز مارجريت ، التى تزوجت الكونت دجرينيـان ( ١٦٦٩ ) ، وسرعان مارحلت الى بروفانس لتعيش معه ، وكان نائبا لحاكمها . فظلت الأم من ١٦٧١ الى ١٦٩٠ تبعث بخطاب مع كل بريد تقريبا — وأحيانا مرتين فى اليوم — الى هذه الزوجة الشابة التى فصلتها عنها ارض فرنسا كلها طولا . كتبت تقول لها « ان مراسلتى لك هى عافيتى ، ولذة حياتى الوحيدة ، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس الى هذا (٦٣) » . ذلك أن الحب الذى لم يجد رجلا يشبعه أصبح غراما مشبوبا بابنة أحست أنها غير جديرة به ، لأن فرنسواز كانت ذات خلق اكثر تحفظا ، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بحرارة . ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم ، وكانت أحيانا تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج ، و مع ذلك ظلت طوال خمس وعشرين سنة ، إلا فى فترات مرضها ، تكتب لأمها مرتين فى الأسبوع ، لايفوتها بريد الا نادرا ، حتى لقد أطلق لأم المتيمة بها ان تكون قد جارت على وقت ابنتها .

وأبلغ مافى هذه الرسائل تأثيراً فى النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة فى الدير . ذلك أنها قدمت باريس لتلد فى كنف أمها . وما لبثت أن أرسلت الى زوجها اعتذارا لأنها ولدت بنتا — لابد من تربيتها بجهد أليم ، ومهرها بهر غال ، ثم فقدها ؛ ولما عادت فرنسواز الى بروفانس تركت مارى بلانش الصغيرة حينا مع جدتها التى افتتنت بها . وكتبت مدام دسفنييه للأب تقول « ان كنت تريد ولداً فاعكف على صنعه (٦٤) » كتبت للوالدين اللذين لم يقدرا طفلتهما تفاصيل نشوانة عن العجيبة التى أنجباها كارهين :

« ان ابنتكما الصغيرة تغدو محببة للنفس . . . بيضاء كالثلج ، ضاحكة على الدوام . . . ولون بشرتها ، وعنقها ، وجسدها الصغير ـ كلها عجيب . وهى تقوم بعشرات الحركات الصغيرة ـ تثرثر ، وتلاطف ، وتضرب ، وترسم علامة الصليب ، وتطلب العفو ، وتنحنى ، وتقبل يدها ، وتهز كتفيها ، وترقص ، وتتملق ، وتشد الأذن ... وأنا ألهو معها ساعات بطولها(٦٥) » .

وقد ذرفت الجدة دموعا كثيرة لتدع هذه العجيبة الريانة البدن تذهب الى بروفانس ، ودموعا أكثر حين أودعها الأبوان ديرا وهى لم تتجاوز الخامسة . ولم تعد الطفلة بعدها ، ففى الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهبنة واختفت من العالم .

وكان نائب الحاكم رجلا متلافا ، يولم الولائم فوق ما يسمح به مركزه . وكانت زوجته تنبىء أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما ، أما الأم فكانت توبخهما فى محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال « كيف ، بحق محبة الله والناس ، يستطيع انسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلى والأثاث وسط الفقر المدقع الذى ابتلى به من يحيط بنا من الفقراء فى هذه الأيام(٦٦) » . ورغبة فى الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات ، كانت مدام دسفينييه تمنى بتفقد أملاكها فى لى روشيه باقليم بريتنى لتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة ، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة . ووجدت سعادة جديدة فى الحقول ، والغابات ، وفلاحى بريتنى ، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التى كتبت بها عن المجتمع الباريسى الذى كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها .

وكان ابنها مشكلة من نوع آخر . فهى شديدة التعلق به لأنه فتى طيب ، يملك كما قالت « معينا من الذكاء وروح الفكاهة . . . وقد ألف أن يقرأ علينا فصولا من رابليه يكاد يموت السامع من الضحك عليها » (٦٧) . وكان شارل ابنا مثاليا ، الا اذا استثنينا توسمه خطى أبيه فى التنقل من اغراء إلى إغراء ، الى أن — ولكن لندع مدام دسفينييه ، وهى تكتب

لابنتها ، تتحمل تبعة باقى القصة ، فلا شىء أكثر ايضاحا لطابع العصر :

« بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك . . . فبالأمس أراد أن يقص على نبأ حادث مروع وقع له . ذلك أنه صادف لحظة سعيدة ، ولكن حين وصل إلى بيت القصيد — كان شيئا عجيبا ! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها أحد فى حياتها قط بمثل هذا أما الفارس فقد تقهقر بعد أن هزم شر هزيمة ، وظن أن سحرا القى عليه ، وألطف ما فى القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد ان انبأنى بكارثته . وضحكنا عليه حتى استلقينا ، وقلت له انى مغتبطة جداً لأنه عوقب حيث أثم . . . . . لقد كان منظرا يستحق أن يسجله موليير(٦٨) » .

وأصيب الفتى بالزهرى ، فعنفته ؛ ولكنها مرضته فى حب . وحاولت أن تبث فيه شيئا من الدين ، ولكن نصيبها من الدين كان من الضآلة بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه . وقد تأثرت بمواعظ بوردالو ، وخبرت دفقات فجائية من التقوى ، ولكنها كانت تبتسم حين ترى المواكب الدينية التى أبهجت أهل المساكن الفقيرة . وقرأت آرنو ، ونيكول ، وبسكال ، وتعاطفت مع البور — رويال ، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك الأبدى ، ذلك أنها لم تستطع أن تقنع نفسها بالإيمان بالجحيم(٦٩) . وكانت على العموم تجفل من التفكير الجاد ، فمثل هذه الأمور ليست للنساء ، ومن شأنها أن تعكر جمال الحياة الوادعة . ومع ذلك كانت ذواقة فى قراءتها — تقرأ فيرجل وتاسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية ، ومونتينى بالفرنسية ، وتعرف مسرحيات كورنيى وراسين معرفة وثيقة . أما فكاهتها فكانت أعمق وأبهج من فكاهة موليير . فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن للتأمل الشارد :

« انقلب برانكا قبل أيام فى مصرف وجد نفسه فيه مرتاحا جداً حتى لقد سأل من سارعوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته . وقد كسرت نظارته ، ولولا أن حظه كان خيراً من حكمته لكسر رأسه أيضا ، ولكن هذا كله لم يقطع تأملاته قط . وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح . . . أنبئه

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق ، لأنى اعتقدت أنه الشخص الوحيد الذى لم يسمع بالحادث فى باريس(٧٠)» .

وهذه الرسائل فى مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفا فى الأدب ، لأن المركيزة تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ . فهى الأم المحبة ، التى تجد نفسها تعلى سجيتها سواء فى صالونات العاصمة أو فى حقول بريتنى ، وهى تكتب لابنتها عن أتفه أحاديث الاستقراطية وقيلها وقالها ، ولكنها تقول ايضا « إن البلبل ، والوقواق ، والهزار — كلها بدأت تصدح فى ربيع الغابات » ، وتدر أن تفوه بكلمة سوء عن مئات الأشخاص الذين يرفون خلال صفحاتها الألفين ، وهى على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكروبين ، مجملة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة ، مذنبة بين الحين والحين بالمرح القاسى ( كضحكها على شنق بعض المتمردين المساكين فى برتنى ) ، ولكنها مرهفة الاحساس بالآم الفقراء ، وهى تغضى عن فساد زمانها وطبقتها ، ولكنها بلا لوم فى سيرتها الشخصية ؛ إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة ، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب ، ولكنها تكتب أفضل فرنسية فى عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق .

ترى هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنشر يوما ما ؟ كانت أحيانا تسترسل فى تحليقات من البلاغة كأنها تشم مداد المطابع ، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل ، وبالمصارحات العاطفية ، والمكاشفات المحرجة التى لا يمكن أن تكون قصدت إذاعتها على القراء . كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها ، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة فى تلك الأيام ، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة ، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين ، التى منعتها من أن تدخل ديراكما فعلت شقيقتها بلانش مارى ، ولكنها لم تنشر إلا عام ١٧٢٦ ، بعد موت المركيزة بثلاثين عاما . وهى اليوم من أغلى عيون الأدب الفرنسى ، وكأنها باقة زهر غنية يزداد عبيرها انتشارا على الأيام .

وازداد تفكيرها فى الدين كلما دنت نهايتها ، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب . وبين ضباب بريتنى ومطر باريس أصابها الروماتزم ، ففقدت فرحتها بالحياة ، وأدركت أنها بشر فان .

« لقد ولجت الحياة دون رضاى ، ويجب أن أخرج منها ؛ هذه الفكرة تطغى على . . وكيف أخرج ؟ . . . ومتى ؟ . . انى أدفن نفسى فى هذه الأفكار ، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لا بغض الحياة لأنها تفضى بى إلى الموت أكثر من بغضى لها لما يملؤها من أشواك . ستقولين انى أريد أن أحيا إلى الابد . ليس الأمر كذلك مطلقا ، ولكن لو أخذ رأيى لآثرت أن أموت بين ذراعى مربيتى ، فقد كان هذا خليقا بأن يوفر على اضطرابات الروح ويكفل لى الجنة فى كل يقين ويسر(٢١) » .

وليس صحيحا أنها ابغضت الحياة لأنها تفضى إلى الموت ، إنما هى أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعا شديداً قرابة سبعين عاما . وإذ كانت أمنيتها أن تموت فى بيت ابنتها الحبيبة ، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعمائة ميل فى رحلة عذاب إلى شاتو جرينيان . فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها ، ووجدت العزاء فى تناول الاسرار المقدسة ، وعللت نفسها بالخلود . ولقد وهب لها الخلود حقا .

## ٨ — لا روشفوكو : ١٦١٣ — ٨٠

شتان ما بين هذا الروح ، وروح أشهر الكلبيين المحدثين ، وأقسى من مزق القناع عن نقائصنا ، ذلك العليل المكتئب الذى شوه سمعة النساء وافترى على الحب ، والذى أحبته ثلاث نساء حتى الموت .

كان النبيل السادس المسمى فرانسوا دلاروشفوكو ، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات ، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلى للملكة والوصية مارى دمديتشى .

وكان اسمـــه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه ( ١٦٥٠ ) . وقد تلقى التعليم فى اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والاتيكيت . فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه دفيفون ، الابنة الوحيدة والوريثة لبازيار فرنسا الـكبير المتوفى . وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان ، وفى السادسة عشرة اشترى رتبة الـكولونيل . وكان يختلف إلى صالون مدام درامبوييه الذى هذب عاداته وصقل أسلوبه . ومع كل مثالية الشباب وإيثاره للنساء الناضجات نراه يعشق الملـكة ، ومدام دشفروز ، والآنسة دهوتفور . وحين تآمرت آن النمساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا ، ثم كشف أمره ، وأودع الباستيل أسبوعا ( ١٦٣٦ ) . فلما أفرج عنه سريعا نفى إلى ضيعة أسرته بفيرتوى . وراض نفسه حينا على العيش مع زوجته ، ولاعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل ، وتعلم أن للريف مباهج لا تستطيع فهمها غير المدينة .

فى تلك الأيام لم يـكن ممـكنا فصم عرى الزواج الشرعى بين الطبقات العليا الفرنسية ، ولـكن كان من الممـكن تجاهلها . وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات فى زواج المرأة الواحدة الذى أضجره ، انطلق للمغامرة فى الحب والحرب . وحين استهدفت عيناه مدام دلونجفيل ( ١٦٤٦ ) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالى ، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة ، لأنه ممـا يرفع من قدره أن يغوى زوجة لدوق وأختا لـكونديه العظيم . أما هى فلعلها ارتضته لأسباب سياسة ، فقد يكون حليفا نافعا فى التمرد الاستقراطى الذى اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطا . ولما أخبرته أنها حبلت منه (٧٢) ، منح كل تأييده للفروند . وفى ١٦٥٢ نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقا ، وحاول لاروشفوكو اقناع نفسه بأن ذلك ما كان يصبوا اليه ، وكما قال بعد ذلك « حين نحب إنسانا إلى درجة الملل ... فإننا نرحب أشد الترحيب . . . بفعل من أفعـال الخيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب(٧٣) » فى ذلك العام ، وفيما كان يحارب فى صفوف الفروند فى ضاحية

سانت أنطوان ، أصابه رش بندقية فى عينيه وخلف به عمى جزئيا . فانكفأ راجعا إلى فيرتوى .

وكان الآن فى الأربعين ، يحس بوادر النقرس ، ويشعر للمرارة من كوارث أكثرها من صنعه . أما مثاليته فماتت فى إثر مدام دلونجفيل ، وفى مؤامرات الفروند الخداعة والنهاية الحقيرة التى انتهت إليها . وقد أزجى فراغه ودافع عن سيرته فى « مذكرات » (١٦٦٢) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب الكلاسيكى . وفى ١٦٦١ سمح له بالعودة إلى البلاط ، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته فى فيرتوى وأصحابه فى صالونات باريس .

وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه . هناك كانت هى وضيوفها يلعبون أحيانا لعبة « العبارات » . يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان ، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضا . وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلصة للبور — رويال — دبارى ، فاعتنقت رأيه فى شر الإنسان الفطرى وخواء الحياة الدنيوية ، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيبته فى الحب والحرب ، وعن الخيانة السياسية والألم البدنى ، وعن خدعه غيره وانخداعه بالغير — نقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانسنية مضيفته . وكان يجد لذة قاتمة فى تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل ، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من الأصدقاء بأن يقرءوا هذه الحكم ، وأن يعدلوا فيها أحيانا . وقد نسخها أحد هؤلاء ، وطبع ناشر لص هولندى ١٧٩ منها ، غفلا من اسم المؤلف ، حوالى سنة ١٦٦٣ ، وتبين فيها رواد الصالونات حكم لاروشفوكو ، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل اضاف إليها ٣١٧ مثلا عام ١٦٦٥ تحت عنوان « عبارات وأمثال اخلاقية » . وأصبح هذا الكتيب الذى اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى « الأمثال » ، من عيون الأدب للتو تقريبا . ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب ، بل إنهم استمتعوا بما حوى

http://nj180degree.com



من فضح لأثرة الغير ، ولم يفطنوا إلى أن القصة إنما تروى عنهم ، إلا فيما ندر .

ووجهة نظر لاروشفوكو أوردها ثانى أمثاله : « إن حب الذات هو حب الإنسان لنفسه ، ولأى شىء آخر لأجله . وحياة الإنسان كلها ليست إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضا قويا له » وليس الغرور إلا شكلا من الأشكال الكثيرة التى يتخذها حب الذات ، ولكن حتى هذ الشكل يدخل فى كل فعل وفكر تقريبا وقد تنام شهواتنا أحيانا ، ولكن غرورنا لا ينام أبداً « ان الذى يرفض الثناء أول مرة يرفضه لأنه يريد سماعه ثانية(٧٤) » . والتلهف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب والبطولات الواعية . « وكل الناس يستوون كبرياء ، والفرق الوحيد هو أنهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق فى إبدائها(٧٥) » . « ان الفضائل تضيع فى المصلحة الذاتية كما تضيع الانهار فى البحر(٧٦) » . « ولو تاملنا أفكارنا الخفية لوجدنا فى صدورنا بذرة كل الرذائل التى نستنكرها فى غيرنا » ولا ستطعنا أن نحكم من واقع فسادنا الشخصى على الفساد المتأصل فى الإنسان (٧٧) . وما نحن إلا عبيد شهواتنا ، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى (٧٨) ، « والعقل يستغفله الوجدان دائما » ، « والناس لا يشتهون شيئا بلهفة إذا طلبوه انصياعا لاوامر العقل فقط(٧٩) » ، « وابسط الناس إذا أعانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من أفصح الناس بدونها ( ٨) » .

وفن الحياة يكمن فى إخفائنا حب ذواتنا بقدر يكفى لتجنب إغضاب حب الغير لذواتهم . وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار « إن النفاق ضرب من الاحترام الذى تقدمه الرذيلة للفضيلة (٨١) » . واحتقار الفيلسوف للزعوم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته فى الترويج لبضاعته . وما الصداقة « إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها(٨٢) » وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد فى نكبات أصدقائنا شيئا ليس كله

مسيئا(٨٣) . ونحن نبادر إلى الصفح عمن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا عمن أسأنا إليهم ، أو عمن تفضلوا علينا — فألزمونا — بخدماتهم(٨٤) . والمجتمع حرب بين الفرد والكل . « والحب الصادق أشبه الاشياح — شيء يتحدث عنه كل انسان ولكن نادرا ما رآه أحد (٨٥) » ، و « ما كنا لنقع فى الحب قط لولا سماعنا الناس يتكلمون فى الحب(٨٦) » . ومع ذلك فالحب إذا كان صادقا تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتى عرفن الحب مرة ضعيفات القدرة على الصداقة ، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب (٨٧) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريبا إلا وهن فى الحب « قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام قط ، ولكن من العسير جدا أن تجد نساء لم يقعن إلا فى غرام واحد لا أكثر (٨٨) » . « وأكثر النساء المحصنات كالكنوز المخفاة ، التى لم تكن فى مأمن إلا لأن أحداً لم يفتش عنها(٨٩) » .

وكان هذا الكلبى العليل عليما بأن هذه الحكم البارعة ليست وصفا منصفا للبشر . لذلك راح يتجنب الجزم فى الكثير منها بألفاظ مثل « تكاد » أو « تقريبا » إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية ، وقد اعترف أنه « أسهل أن يعرف المرء النوع الإنسانى عموما من أن يعرف انسانا واحداً بالذات (٩٠) » ، وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على « المحظوظين القلائل ، الذين سرت السماء بأن تحفظهم . . . بنعمة خاصة(٩١) » . ولا بد أنه سلك نفسه فى زمرة هؤلاء القلائل ، لأنه كتب : « انى أخلص لأصدقائى إخلاصا لا أتردد معه لحظة فى التضحية بمصالحى فى سبيل مصالحهم(٩٢) » . — ولو أنه كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد فى بذل مثل هذه التضحية لذة أكثر مما يجده فى منعها . وقد تحدث بين الحين والحين عن « عرفان الجميل ، فضيلة العقول الحكيمة السمحة (٩٣) » ، و « الحب ، النقى الذى لا تشوبه شهوة ( إذا وجد إطلاقا ) ، الذى يكمن فى أعماق قلوبنا (٩٤) » و « مع أنه يمكن القول ، بقدر كبير من الصدق . . . ، ان الناس لا يفعلون شيئا دون

مراعاة لمصلحتهم ، إلا أنه لا يستتبع هذا ان كل ما يفعلونه فاسد ، وأنه لم يبق فى الدنيا شىء اسمه العدالة أو الأمانة . فالناس قد يحكمون أنفسهم بوسائل شريفة ، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنبل(٩٥) » .

وقد ألانت الشيخوخة جانب لاروشفوكو ، حتى وهى تزيده شجنا على شجن . ففى ١٦٧٠ ماتت زوجته بعد ثلاثة وأربعين عاما من الوفاء الصابر ، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال ، وقامت على تمريضه طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة . وفى ١٦٧٢ ماتت أمه ، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة وفى تلك السنة جرح اثنان من أبنائه فى غزوة هولندة ، ومات أحدهما من جروحه . كذلك سقط فى نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعى الذى ولدته له مدام دلونجفيل ، والذى لم يؤذن له بأن يطالب به ابنا برغم أنه أحبه حبا عميقا . روت مدام دسفينييه « رأيت لاروشفوكو يبكى فى حنان جعلنى أعبده(٩٦) » . ترى أكان حبه لأمه وأولاده حبا لذاته ؟ أجل ، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادا لها . وهذا هو التصالح بين الإيثار والأثرة — فالإيثار توسيع للذات ، ولمحبة الذات للأسرة ، أو الأصدقاء ، أو الجماعة . وفى وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة .

ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله « ان فضل القليل من النساء يدوم أطول من جمالهن(٩٧) » . لقد كانت أمه وزوجته استثنائيين ، ولم يكن من الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتى ضيعن جمالهن الجسدى فى خدمة الرجل والأطفال . وفى ١٦٦٥ بذلت له امرأة ثالثة معظم حياتها . ولاشك فى أن مدام دلافاييت أرضت قلبها هى وهى تحاول أن تسرى عنه . فلقد كان يومها فى الثانية والخمسين ، يشكو النقرس ونصف العمى ، اماهى فكانت فى الثالثة والثلاثين ، محتفظة بجمالها ، ولكنها عليلة تشكو حمى الملاريا . ولقد روعها مافى امثاله من كلبية ، ولعل فكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقى والتسرية عنه خالطت رأيها فيه ، فدعته الى بيتها فى باريس ،

فجاء محمولا على محفة ، فعصبت قدمه الموجوعة ووسدتها ، وأتت بأصحابها ، ومنهم مدام دسفينييه المتدفقة العاطفة ليساعدتها فى الترويح عنه . وعاد إليها ثانية ، وكثرت زياراته حتى لغطت بها باريس . ولا علم لنا هل دخلت فى هذه الزيارات الألفة الجنسية ، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً فى علاقة أصبحت تبادلا بين الأرواح . قالت « لقد اعطانى الفهم ، ولكننى أصلحت قلبه(٩٨) » . ولعله ساعدها فى روايتها « أميرة كليف » وان بعدت رقتها وحنانها عن قسوة « أمثاله » بعد السماء عن الأرض .

وبعد أن ماتت مدام دلاروشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضربا من الزواج الروحى ، وفى الادب الفرنسى صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد ، تجلس فى هدوء إلى جوار الفيلسوف العجوز الذى أقعده الألم عن الحركة . قالت مدام دسفينييه « لا شىء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وثقتها(٩٩) » . وقال بعضهم ان المسيحية تبدأ حيث ينتهى لاروشفوكو(١٠٠) ، وقد تبينت صحة القول فى هذه الحالة ، ولعل مدام دلافاييت الصادقة الورع أقنعته بأن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة . ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة ( ١٦٨٠ ) . وقد عمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاما حافله بالألم .

## ٩ — لابرويير ١٦٤٥ — ٩٦

بعد موت لاروشفوكو بثمانية أعوام اكتسب جان دلابرويير تحليله الساخر للآدميين من أهل باريس . وكان جان ابن موظف صغير فى الحكومة . درس القانون ، واشترى وظيفة حكومية صغيره ، واصبح معلما خاصا لحفيد كونديه العظيم ، وخدم أسرة كونديه وصيفا ، وتبعها إلى شانتبى وفرساى . وقد ظل أعزب الى نهاية حياته .

وقد عذبته حدة الفوارق الطبقية فى فرنسا لما فطر عليه من حساسية

وجياه ، ولم يستطع الاستمانة بمظاهر الغرور اللطيفة التى ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفى البلاط ، وذلك رغم انتمائه الى الطبقة الوسطى . وقد لاحظ معرض الوحوش الملكى بعين معادية نفاذة ، وانتقم منها بوصفها فى كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريبا ، وقد سماه « الاخلاق لتيوفراست مترجمة عن الاغريقية ، مع اخلاق أو عادات هذا العصر » . وأصبح الكتاب حديث باريس ، لانه صور تحت أقنعة شفافة أشخاصا مشهورين فى المدينة أو البلاط ، وجعل كلا منهم يجد المتعة البالغة فى فضح الباقين . ونشرت « مفاتيح » للكتاب تزعم انها تطابق الصور مع اصولها ، واحتج لابروبير بأن أوجه الشبه عارضة ، ولكن أحدا لم يصدق ، وذاع صيته ، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف فى ١٦٩٦ ، وقد اضاف الى كل طبعة « أخلاقا » جديدة تبينت فيها باريس مرآة العصر .

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدو لنا مادته هزيلة بعض الشىء ، وأفكاره قديمة مبتذلة ، وروحه يشوبها بعض الحسد ، وهجاؤه سطحيا جدا ، كهجائه لمينا لكاس الرجل الشارد الذهن (١٠١) . ولا يطلب لابروبير أى تغيير فى دين فرنسا أوحكومتها . وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء ، والا لكان العثور على الخدم عسيرا ، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض ، والخوف من الفقر لاغنى عنه لانتاج الثروة (١٠٢) . وكان يسلك بوسويه فى عداد أصدقائه مفاخرا بذلك ، وقد أشاد فى القسم الأخير من كتابه ( « فى أحرار الفكر » ) الحجج التى أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم افضل وأثر أرفع ، وردد البراهين التى ساقها ديكارت عن الله والخلود ، واستشهد بشىء من الحذق ، فى رده على اللاأدريين فى زمانه ، بنظام السماوات وجلالها ، وعلامات الهدف المرسوم فى الكائنات الحية ، والاحساس بتقرير المصير فى الارادة وباللامادية فى الذهن . وهاجم غرور النبلاء ، وجشع رجال المال ،

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون الى لويس لا الى المذبح فى كنيسة فرساى ؛ ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر يتقى بها غضبه (١٠٣) . وفى فقرة واحدة على الأقل ازاح الحذر جانبا وتسامى فى جرأة ليصف درك البهيمية الذى تردى فيه ملاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه . يقول : « انتشرت فى أرجاء الريف حيوانات ضارية ، ذكور واناث ، سوداء ، ممتقعة ، أحرقتها الشمس تماما ، والتصقت بالأرض التى تحفرها وتقلبها فى اصرار لايقهر ، ولها ما يشبه الصوت المنطوق ، فاذا انتصبت على قوائمها بدت فى سحنة البشر ، والواقع انها ناس من الناس (١٠٤) » .

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب فى عصر فرنسا الكلاسيكى .

## ١٠ — مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام ، بعد أن أصابنا الاعياء ، فى ملحق هياب بعض الخالدين الذين بدأوا يموتون ؟

هناك جان شابلان ، الذى أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية ، واعتبر فى زمانه ( ١٥٩٥ — ١٦٧٤ ) أشعر شعراء فرنسا . وهناك جان باتيست روسو ، الذى كتب شعرا ينسى ، ولكنه كتب أيضا إنجرامات مقذعة جرت عليه النفى من فرنسا ( ١٧١٢ ) عقابا على تشهيره بالأشخاص . وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات ، فرأينا مذكرات دريتز ولاروشفوكو ، وسنرى فى موضع لاحق مذكرات سان — سيمون . ويلى أولئك مرتبه تلك المجلدات الثلاثة التى سجلت فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التى قضتها فى بلاط آن النمساوية . ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رايه اذ كتبت « ان تجربتى القاسية فى صداقة البشر الزائفة أكرهتنى على الايمان بانه ليس فى الدنيا شىء أندر من الأمانة والاستقامة ، أو من

القلب الطيب القادر على عرفان الجميل[١٠٥] . » لقد كانت هى هـذا الانسان النادر الوجود .

وقد حقق روجيه درابوتان ، كونت بوسى ، نجاحا فى دنيا الفضائح بكتابه « تاريخ غراميات الغاليين » ( ١٦٦٥ ) الذى وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغاليين . وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا ، فزج به فى الباستيل ، ثم افرج عنه بعد سنة شريطة أن يعتكف فى ضيعته ، وهناك ألف « مذكراته » النابضة بالحياة ، والغيظ يبريه إلى نهاية حياته . وأقل من هـذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب « الأقاصيص » الذى رسم فيه تالمان دى ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة فى الأدب أو الغرام . وقد جاهد كلود فلورى ، بكتابه الامين « التاريخ الكنسى » ( ١٦٩١ ) ، وسباستيان تيلمون بكتابه « تاريخ الأباطرة » ( ١٦٩٠ وما بعدها ) ، وكتابه « مذكرات ينتفع بها فى التاريخ الكنسى للقرون الستة الأولى » ( ١٦٩٣ ) ذى الستة عشر مجلدا — هذان جاهـدا فى معاناة ، ودون وعى منهما ، ليمهدا الطريق وينقياه لكتاب جيبون « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها » ( ١٧٧٦ وما بعدها ) .

ثم هناك أخيرا شارل دماركتيل شريف سانت — افريمون الذى كان ألطف تلك « العقول القوية » التى صدمت الكاثوليك والهيجونوت ، واليسوعيين والجانسيين على السواء ، بالتشكك فى التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصا الماريشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقا لفوكيه وناقدا لمازاران . فلما نمى إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندة ، ثم إلى انجلترة ( ١٦٦٢ ) . وقد جعلته عاداته المهذبة وذكاؤه الشكاك أثيرا فى صالون هورتنزى مانشينى بلندن ، وفى بلاط تشارلز الثانى . وكان كالماريشال دوكنكور ، فى واحد من أكثر حواراته مرحا[١٠٦] ، يحب الحرب أولا ، ثم النساء ، ثم الفلسفة . وإذ رشف كل المباهج التى فى مونتينى ، ودرس أبيقور مع جاسندى ، فقد

خلص مع الاغريقى للفترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة ، ولكن لذة الفكر أطيب ، وأنه لا داعى يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها بنا . وقد بداله الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجا معقولا . وفى ١٦٦٦ زار هولنده ثانية ، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثرا عميقا بالحياة المسيحية التى كان يحياها اليهودى القائل بوحدة الوجود(١٠٧) . وقد أتاح له معاش أجرته عليه الحكومة الإنجليزية ، بالإضافة إلى ما استنقذه من فضلات ثروته ، أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة ، كلها بأسلوب خفيف رشيق شارك فى تكوين فولتير . وقد أعان كتابه « تأملات فى مختلف أجناس الشعب الرومانى » مونتسكييه ، وشاركت رسائله إلى تينون دلانكلو بجزء من ذلك العبير الذى يتضوع خلال الرسائل الفرنسية . ولما بلغ الثامنة والخمسين ، ودون وعى منه بأنه سيعمر اثنتين وثلاثين سنه أخرى ، وصف نفسه بأنه مقلقل بصورة لاشفاء له منها . « انى لولا فلسفة مسيو ديكارت التى تقول أنا أفكر فإذن أنا موجود لما صدقت انى موجود ، وهذا كل ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير(١٠٨) » وقد كاد ينافس فونتنيل فى طول عمره ، إذ لم يمت إلا عام ١٧٠٣ بعد ان بلغ التسعين ، وقد نال تشريفا ندر ان حظى به فرنسى ، وذلك هو دفنه فى دير وستمنستر .

كتب فردريك الأكبر إلى فولتير : « بعد قرون سيترجمون الكتاب المجيدين فى عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليس وأوغسطس » . وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ماأنتج القدماء فى الفنون والآداب . وفى ١٦٨٧ قرأ شارل بيرو ( أخو كلود بيرو الذى صمم من قبل واجهة اللوفر الشرقية ) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها « قرن لويس العظيم » رفع فيها العهد فوق أى حقبة فى تاريخ اليونان أو الرومان . ولكن بوالو الناقد العجوز ابرى للدفاع من القدامى رغم ان بيرو سلكه فى زمرة المعاصرين

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى ، فقال للأكاديمية ان من العار الاستماع إلى هذا اللغو . وحاول راسين ان يخمد النار بزعمه أن بيرو كان (١١٠) يمزح ، ولكن بيرو أحس أن لديه موضوعا مجزيا . فعاد إلى المعركة فى ١٦٨٨ بكتابه « نظائر القدامى والمحدثين » وهو حوار طويل حى يؤيد تفوق المحدثين فى العمارة والتصوير والخطابة والشعر — وذلك باستثناء الايادة ، التى هى فى رأيه أروع من الالياذة أو الاوديسة أو أى ملحمة أخرى . وقد ناصره فونتنيل بذكاء وبراعة ، أما لا بروبير ولا فونتين وفينيلون فوقفوا فى صف بوالو .

لقد كان شجاراً صحيا، عين نهاية نظرية « الانحطاط » المسيحية الوسيطة، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة . وكان هناك اتفاق عام على أن العلم قد تقدم متجاوزا أى مرحلة أدركها اليونان أو الرومان ، وحتى بوالو اعترف بهذا ، وسلم بلاط لويس الرابع عشر فى غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذى طور به فى مارلى وفرساى . ولن نزعم أننا فاصلون فى هذه المشكلة ، فلنتركها الآن حتى نعرض كل جوانب هذا العصر فى أوربا بأسرها . ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورنيي كان متفوقا على سوفوكليس ، أو راسين على يوريبيديس ، أو بوسويه على ديموستينيس ، أو بوالو على هوراس ؛ وما ينبغى أن نسوى بين اللوفر والبارثينون ، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس . ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تقبل المناقشة ، وان تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة .

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه « أكثر العصور التى شهدها العالم استنارة (١١١) » دون ان يتوقع أن عصره هو سيسمى « عصر التنوير » . ولكن ينبغى أن نخفف من غلو هذا الاطراء . فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما فى إلغاء مرسوم نانت الرحيم ، و « التنوير » كان وقفا على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وعابها سرفها الابيقورى أحيانا . والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

الوسيط ، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يكد أحد يحلم بها ، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة . لقد كان فى عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقرية قسط أكبر مما كان فى عهد الملك العظيم . إن العصر لم يكن له ضريب فى الرعاية الملكيه للادب والفن ، وفى خضوعهما البليغ للملك . وقد بلغ الفن والأدب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك ، ولكنهما انحدرا أحيانا إلى المبالغة فى الفخامة والابهة كما نرى فى قصر فرساى أوفى بلاغة كورنيى فى آخر أنتاجه . وكان يشوب المأساة والفنون الكبرى فى هذا العهد بعض التكلف والافتعال ، فقد أفرطا فى الاتكاء على النماذج اليونانية أو الرمانية أو نماذج النهضة . واتخذا موضوعاتهما من عصر قديم دخيل لا من تاريخ فرنسا ودينها وطابعها ، وعبرا عن التعليم الكلاسيكى الذى حظيت به طبقة خاصة لا عن حياة الشعب وروحه . ومن ثم نجد موليير ولا فونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق، لأنهما نسيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا . صحيح ان العصر الكلاسيكى نقى اللغة ، وصقل الادب ، وهذب الحديث ، وعلم العاطفة المشبوبة أن تفكر ، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسى ( والإنجليزى ) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم .

ومع ذلك كان عهدا عظيما . فلم يشهد التاريخ من قبل حاكما سخا مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون . لقد اضطهد لويس الرابع عشر الجانسنيين والهيجونوت ، ولكن فى عهده كتب بسكال ، ووعظ بوسويه ، وعلم فينيلون . ولقد جند الفن ليخدم به مآربه ومجده ، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع فى العمارة والنحت والتصوير . ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم ، وآزر راسين من مأساة إلى مأساة . ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل ، ولا رسائل أفضل ، ولا نثرا أفضل ، مما كتبت فى عهده . وقد أشاعت عادات الملك المهذبة ، وضبطه

لنفسه . وصبره ، واحترامه للنساء — أعانت كلها على انتشار الاداب المهبة والمجاملات اللطيفه فى البلاط ، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوربا . ولقد أساء استعمال بعض النساء ، ولكن تحت حكمه بلغت النساء فى الادب والحياة مقاما اضفى على فرنسا ثقافه ثنائيه الجنس يفوق جمالها أى ثقافه أخرى فى العالم . وبعد كل التحفظات ، وبعد الاعراب عن أسفنا لان هذا الجمال الكثير لوثته هذه القسوة الكثيرة ، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين فى الأشادة بعصر لويس الرابع عشر بوصفه عصراً يقف على قدم المساواة مع اليونان فى أيام بركليس ، والرومان فى أيام أوغسطس ، وإيطاليا فى أيام النهضه ، وانجلترة فى أيام اليزابيث وجيمس الاول — يقف مع هؤلاء جميعا قمة شامخة بين الشوامخ فى مسار الإنسانية المتعثر .